أدونيس وديوانه الجديد..

الكتاب: أمس المكان الآن

لماذا الحديث عن الشاعر أدونيس؟ وهل هو ضروري الآن؟

في تقديري أن الحديث عن الشاعر أدونيس ضروري الآن لعدة أسباب منها:

١ ـ أدونيس ليس شاعراً عادياً بل هو أحد مؤسسي مدرسة شعرية جديدة في العصر الحديث مثلتها «مجلة شعر» التي صدرت في الخمسينيات، والتي أرادت أن تنسف قواعد التراث الشعري مضموناً وشكلاً وأن تؤسس قواعد جديدة وأن تروّج لها.

٢ ـ أدونيس ليس شاعراً فحسب بل صاحب دراسة موسّعة لتاريخ الأمة، وقد انتهى في دراسته تلك إلى فرز عوامل الثبات والتحوّل والاتباع والإبداع في كل مجالات تاريخ أمتنا.

٣ ـ أدونيس ليس شاعراً يتعاطى الشعر فقط لكنه صاحب نظرة نقدية للشعر العربي: قديماً وحديثاً، تقوم على تفضيل بعض الأساليب الشعرية ورفض بعضها الآخر، وتقوم على الترويج لأشكال جديدة من الأدب والتنظير لها مثل «قصيدة النثر».

٤ ـ أصدر أدونيس مؤخراً ديواناً سمّاه (الكتاب: أمس المكان الآن) وأعلن أنه سيصدر الجزء الثاني منه وسيتوقف عن الكتابة بعد ذلك(١)، يشكّل إذن هذا الديوان قمة تطوّرة الشعري واعتزازه فلابدّ من وقفة مع هذا الديوان.

٥ ـ أدونيس أحد المرشحين لجائزة نوبل لعدة سنوات سابقة، ولمّا يفز بها حتى الآن، فيستحسن أن نفهم هذا المرشح لجائزة نوبل والذي قد يفوز بها في وقت لاحق، ونضعه تحت المجهر لنحدد ما المقبول منه وما المرفوض قبل أن يمطرنا بوابل محاضراته وأقواله بعد نيله تلك الجائزة، فلا نستطيع أن نقوم بعملية الفرز والغربلة حينئذ.

هذه بعض الأسباب التي تجعل الحديث عن أدونيس ضرورياً جداً في هذا الوقت وفي هذه المرحلة.

عرض ونقد: غازي التوبة*

والآن سأتناول هذا الديوان الشعري الجديد الذي أسماه «**الكتاب: أمس المكان الآن**»، وأرى من أجل استيضاح صورة الديوان الشعري أنه لابد من الحديث عن نظرة **أدونيس** إلى الشاعر ونظرته إلى الكتابة عند العرب.

■■ نظرة أدونيس إلى الشاعر والكتابة:

يرى **أدونيس** أن الشاعر يجب أن يكون صاحب رؤيا، ويجب أن يكون مجدداً، ويجب أن يصوغ العالم صياغة جديدة، ولا يكون دوره فقط محاكاة العالم. ويرى **أدونيس** أن «الكتابة» تالية لمرحلة «الخطابة» عند العرب. ويعتبر أن الثورة الكتابية الأولى التي نشأت في وجه الخطابة، نثراً وشعراً، هي كتابة القرآن الكريم، فالقرآن الكريم نهاية الارتجال والبداهة، ثم ينقل **أدونيس** أقوالاً للقلقشندي أدان فيه الكلام القديم: الخطابة والشعر، وأدان الأساس الذي يقوم عليه وهو الأمية ـ الفطرة، الارتجال ـ البداهة، وفضّل النثر (الجديد الناشىء) على الشعر (القديم السابق)(٢).

ويعتبر **أدونيس** أن هذه النصوص القرآنية تؤسس عهداً جديداً من الكتابة يقوم على النقاط التالية:

١ ـ إذا كانت الكتابة جمعاً فإن الكلام غير المكتوب يظل مبعثراً لا ناظم له، ولا ثقة فيه.

٢ ـ الكتابة علم: لا علم بالمعلوم وحسب، بل بالمجهول كذلك.

٣ ـ الكتابة «صناعة روحانية» أي أنها تجسيد بالحروف للصور الباطنة.

٤ ـ الكتابة «إنشاء» أي أنها اختراع على غير مثال.

٥ ـ الكتابة عمل شاق لا يعرفه إلاّ من يمارسه.

٦ ـ الكتابة لا متناهية شكلاً وموضوعاً، لأنها تواجه عالماً لا متناهياً.(٣)

والآن نعود إلى الحديث عن ديوانه الشعري «**الكتاب: أمس المكان الآن**» الذي يُعرفه **أدونيس** فيقول عنه: «مخطوطة تنسب إلى المتنبي، يحققها وينشرها **أدونيس**» ماذا نستفيد من هذا الكلام على ضوء ما تقدم من نظرة **أدونيس** إلى الشاعر والكتابة؟

أظن أنه لأمر طبيعي أن نفترض التزام **أدونيس** بما طلبه من الشاعر وهو أن يكون صاحب رؤيا، ويكون متنبئاً، ويكون صائغاً للعالم صياغة جديدة، وأن يكون شعره تأسيساً وتجديداً ويكون ضمن صورة «الكتابة» وليس ضمن صورة «الخطابة»، على ضوء هذا نستطيع أن نقول إن **أدونيس** «المتنبئ» اختفى وراء «أبي الطيب المتنبي» ليقول على لسانه نبوءته التي دوّنها في «الكتاب» والتي يقصد أن تكون رؤيا جديدة وصياغة جديدة للواقع، والتي يجب أن تبتعد عن «الخطابة اللسانية» التي امتازت بها «الشعرية العربية السابقة».

فهل حقق «الكتاب» هذه الرؤيا؟

نعم حققها، لكنها رؤيا هدم في الشكل والمضمون، ولا نستطيع أن نفهم هذا الهدم في المضمون إلا بالعودة إلى «الثابت والمتحول» والتوقف عند بعض طروحاته لأنه الخلفية الفكرية التي اعتمدها أدونيس، والتي نقل منها في كل ما دوّنه في الديوان الشعري الجديد «الكتاب: أمس المكان الآن»، فماذا جاء في «**الثابت والمتحول**»؟ وماذا قال **أدونيس** فيه؟

■■ الثابت والمتحول عند أدونيس:

ما هو الثبات وما هو التحول؟

يعتبر **أدونيس** أن تاريخنا ينقسم إلى منحنيين: منحى ثبات واتّباع، ومنحى تحول وإبداع، وهو يعرض بحثه في كتابين: يتحدث في الأول عن أصول الاتّباع والإبداع، ويتحدث في الثاني عن تأصيل أصول الاتّباع والإبداع.

يرى **أدونيس** أن هناك اتباعية في الخلافة والسياسة نشأت منذ الاجتماع في سقيفة بني ساعدة تقوم على قرشية الخلافة، كما تقوم على اتباع سيرتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بالإضافة إلى اتباع سنن الرسول ﷺ وهديه.

وهو يرى أن هناك اتباعية في السنة والفقه، كما أن هناك اتباعية في الشعر والنقد تتابع النبي ﷺ على موقفه من الشعر الذي حافظ فيه على النواة الأساسية لدور الشعر في القبيلة ولطبيعة العلاقة بين الشاعر والقبيلة، غير أنه أعطى لهذه النواة مظهراً جديداً، وبعداً جديداً، ينقل دور الشعر من إطار الفضائل القبلية إلى إطار الفضائل الدينية، ويحوّل العلاقة بين الشاعر والقبيلة إلى علاقة بين الشاعر والدولة.(٤)

ما هو الإبداع والتحول في نظر أدونيس؟

يرى **أدونيس** أن جذور الإبداع في مجال السياسة والحكم يبدأ مع مثيري فتنة عثمان رضي الله عنه، ويضم إليهم بعد ذلك الخوارج. ويرى أنهم وضعوا

يرى أدونيس أن ابن الراوندي وابن حيان والرازي أصّلوا للإبداع في مجال اعتماد العقل وإبطال النبوة!!

أصولاً تختلف عن الأصول التي قام عليها الحكم الأموي، فوضعوا نظرية خلع الإمام الجائر، واستعاضوا عن مبدأ القرشية في الإمامة بمبدأ الجدارة.(٥)

ثم يرصد **أدونيس** وقائع كل الثورات التي قامت مناهضة للخلافة الأموية، ويعرض بعضاً من تفصيلات وقائعها كثورة التوابين عام ٦٥ هـ، ثم ثورة المختار بن عبيد الثقفي، وثورة مطرف بن المغيرة عام ٧٧ هـ، ثم ثورة عبدالرحمن بن الأشتر عام ٨١ هـ، ثم ثورة زيد بن علي بن الحسين عام ١٢٢ هـ، ثم ثورة أبي مسلم الخراساني عام ١٢٩ هـ.

ثم يتحدث **أدونيس** عن الحركات الفكرية في العهد الأموي، فيشير إلى أن الخوارج قرنوا النظر بالممارسة، ووحّدوا بين الإيمان والعمل، في حين أن حركة الإرجاء فرّقت بين الإيمان والعمل، ويعرض إلى قول جعد بن درهم بخلق القرآن، الذي يعني اعتماد العقل مصدراً أولاً للمعرفة، ويعرض للفرقة التي قالت بالقدر، أي أن الإنسان مختار حر، وهو الذي يفعل أفعاله، ويعرض لفرقة الشيعة التي قالت بالإمامة.(٦)

ويعرض **أدونيس** أصول الحركة الشعرية فيرصد التحول في تجربتين:

الأولى: التجربة الذاتية التي تغلّب عالم العواطف والرغبات والأهواء على العالم الخارجي، و**الثانية:** هي التجربة السياسية الأيديولوجية التي توحد بين الشعر والفكر، ويعرض لنماذج من شعراء التجربتين.

ثم ينتقل في الكتاب الثاني إلى تأصيل الأصول فيرى أن الشافعي ـ رحمه الله ـ هو الذي أصّل الأصول الدينية ـ السياسية في مجال الاتباع، ويرى أن الأصمعي والجاحظ أصّلا الأصول البيانية الشعرية في مجال الاتباع أيضاً، ثم ينتقل إلى تأصيل الإبداع فيرى أن ثورة الزنج والحركة القرمطية أصلتا للإبداع وأنهما ألغتا الملكية الخاصة.

ويرى **أدونيس** أن ابن الراوندي وجابر بن حيّان ومحمد بن زكريا الرازي أصّلوا للإبداع في مجال اعتماد العقل وإبطال النبوة!!! فينقل أن ابن الراوندي انتقد المعجزة!!!

وانتقد منهج النبي في الفكر والعمل!!! وانتقد إعجاز القرآن وكان يرى أن كلام أكثم بن صيفي أفصح من القرآن الكريم!!!(٧)

ثم يتحدث **أدونيس** عن موقف الرازي من الدين، وينقل نقده للنبوة، وينتهي إلى نفي النبوة كمبدأ وظاهرة، والاكتفاء بالعقل!!! كما ينقل نقده لسائر الأديان وإبطاله، ثم ينقل آراءه في نقد الكتب المقدسة وإبطالها!!! وهو يعتبر أن القرآن متناقض، وينكر أن يكون القرآن معجزة أو حجّة!!! وهو يرى أن الإعجاز والحجّة يتمثلان في الكتب العلمية!!!(٨)

ثم ينقل **أدونيس** موقف المعتزلة الذي يقوم على تقديم العقل على الشرع، وأدى تقديم العقل على النقل عند المعتزلة إلى التوكيد على إرادة الإنسان وحريّته، وأدى إلى اعتقادهم أن اللغة اصطلاح ووضع، وليست توقيفاً أو وحياً.(٩)

ويصنّف **أدونيس** التصوف في مجال الإبداع!!! ويبين أن التجربة الصوفية تنطلق من القول أن الوجود باطن وظاهر، وأن الوجود الحقيقي هو الباطن. وقد ترتبت على هذا المنطق نتائج كثيرة، وبخاصة فيما يتعلق بالمعرفة ومنهجها، والصلة بين الإنسان والله، استلزمت فهم القرآن فهماً جديداً، لم تعتمد في فهمها هذا المنطق أو العقل، ولم تعتمد الشريعة، إنما اعتمدت الذوق، وليس في الذوق حدود، وهو يتجاوز الأمر والنهي، لأنه هو البداية التي تمحو كل أمر ونهي!!! وحين يكون بين الحقيقة والشريعة تناقض، فإن الشريعة هي التي يجب أن تؤول بمقتضى الحقيقة.

وتنتهي التجربة الصوفية بالفناء في الله: لقد نقلت الصوفية تجربة الوجود والمعرفة من إطار العقل والنقل إلى إطار القلب، فلم يعد الوجود مفهومات ومقولات مجردة، وبطلت المعرفة أن تكون شرحاً لمعطىً قبلي، أو تسليماً بقول موحىً (١٠).

ويمثّل **أدونيس** على الإبداع في الشعر بنموذجين هما: أبو نواس وأبو تمّام، ويبرز مجون أبي نواس، ويبرز إصراره على فعل الذنوب، وانتهاك المحرّم الذي يعني خروجاً على الله، ويبين تعلقه بالخمرة وتقديسه لها، ويوضح كيفية ربط الخمرة بجميع الأشياء، ويوضح أن شعر أبي نواس ينطلق من أولية التجربة، في حين أن أبا تمام ينطلق من أولية اللغة الشعرية.

■■ تفنيد بعض وجهات نظر أدونيس في كتاب «الثابت والمتحول»:

ليس من شك بأن تفنيد وجهات نظر **أدونيس** في كتاب «الثابت والمتحول» يحتاج إلى مجلدات، ولا أستطيع فعل ذلك في هذه العجالة ولكنني أكتفي بتقويم بعض ما طرحه ليساعدنا على فهم مدى الأخطاء التي وقع فيها في ديوانه الشعري:

١ ـ يفسر **أدونيس** في عدة مواضع من كتابه تطورات المجتمع الإسلامي تفسيراً اقتصادياً طبقياً، منطلقاً من ماركسية واضحة، مع أنه أوضح في البداية أنه سيتجنب ذلك في بداية

مقدمته للكتاب، وتعلل بعدم تخصصه في مجال الدراسة الاقتصادية، ولعدم امتلاكه أدواتها، ولا يمكن أن نضع إشادته بالثورتين: الزنجية والقرمطية إلاّ الخضوع لذلك التفسير الماركسي للتاريخ الإسلامي، ولا شكّ أن هذا جهل وافتئات على التاريخ الإسلامي وتطبيق لمقاييس لم يعرفها ولا تنطبق عليه، فالتاريخ الإسلامي لم يعرف الطبقات بالمعنى الماركسي المعهود، لأنه لم يعرف الرِّبا من جهة، ولإقراره نظام الزكاة التي تؤخذ من رأس المال، والتي تُحدث توازناً في المجتمع من جهة ثانية، ولوجود تشريعات الميراث التي تفتّت الثروات المتكدسة من جهة ثالثة، وهذا ما قاله كثير من المفكرين الغربيين الدارسين للاقتصاد الإسلامي، من أمثال مكسيم رودنسون في كتاب «الإسلام والرأسمالية» وجاك أوستروي في كتاب «الإسلام والتنمية الاقتصادية»(١١).

٢ ـ يعلّل **أدونيس** نشوء الفرق من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرها بعوامل سياسية بشكل عام، ويربطها بفتنة عثمان رضي الله عنه بشكل خاص، والحقيقة أنّ هذا بعيد عن الصواب، والأرجح أن نشوء هذه الفرق مرتبط بعوامل بيئية، وبموروثات وبأفكار جلبتها هذه الفرق من الأمم السابقة تأثرت بها وتداخلت مع منهجها وأبعدتها عن الفهم الذي علّمه الرسول ﷺ لصحابته، فالخوارج حكمت بيئتهم البدوية البسيطة فهمهم للإسلام، فأخذوا بظاهر النصوص، ولم يتدبروها. والشيعة تأثروا بكثير من موروثات المنطقة، التي كانت تعج بالغنوص، وبتقديس الرجال، وبالتصوف، والمعتزلة تأثروا بمذهب الذّرة المترجم عن الفلسفة اليونانية.

٣ ـ يرى **أدونيس** توحّد الثقافة والدولة في كيان واحد في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، يقول **أدونيس** عن الخلافة الأموية: «إن الدين صار دين النظام، وتوّحد بالواقع السياسي لهذا النظام، وأصبح النظام ينظر إلى الواقع من حيث إنه يجب أن يتكيف وينسجم مع سياسته ودينه، وأصبحت الثقافة انطلاقاً من ذلك، لا تتعارض مع الواقع، بل تتحد به، أصبحت الثقافة والدولة شيئاً واحداً».(١٢)

وعندما يصدر **أدونيس** الحكم السابق على الدولة الإسلامية فإنما ينطلق من نظره إلى الدولة المعاصرة وسيطرتها على كل شيء، ولكن الحقيقة أن مسار التاريخ الإسلامي يخالف نظرته تلك تمام المخالفة، فقد كانت هناك قيادتان في تاريخنا: قيادة الأمراء وقيادة العلماء، وقد كان الجانب الثقافي بقيادة العلماء بعيداً عن الأمراء وسيطرتهم وتدخلاتهم، وقد حدث ذلك نتيجة إشادة الدين الإسلامي بالعلم والعلماء، ونتيجة جدلية خاصة بالأمة الإسلامية، ويؤكد ذلك سلسلة العلماء الطويلة التي تزخر بها أمتنا ومنهم: مالك بن أنس، أبو حنيفة، الشافعي، أحمد بن حنبل، الباقلاني، الجويني، ابن تيمية، ابن حجر العسقلاني رحمهم الله أجمعين(١٣) إلخ...

٤ ـ والسؤال الآن: ما هو وجه الإبداع في إلحاد ابن الراوندي والرازي؟؟؟!! وبخاصة إذا عرفنا أن هذا أمر قديم كان موجوداً قبل نبوة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم، ورافق نبوته ﷺ ونزول القرآن الكريم حيث كفر قسم كبير من العرب المدعوين، وتشككوا في كل ما دعاهم إليه، وسيكون هناك أيضاً أناس يكفرون بمحمد ﷺ بعد وفاته ﷺ، وما علاقة الإلحاد بالمنهج التجريبي؟ وهل كل إلحاد يفرز منهجاً تجريبياً؟ ألم يكن المنهج التجريبي موجوداً في الحضارة الإسلامية وفي الكيان الإسلامي قبل أن يطرح ابن الراوندي والرازي وغيرهما أباطيلهم؟

٥ ـ ما وجه الإبداع في الإرث الصوفي الذي يمثله الحلاّج والسهروردي المقتولان وغيرهما؟ لقد كان التصوف موجوداً قبل الإسلام عند كل الأمم الوثنية الضالة، وكان سبباً في انحطاطها، ولقد كان التصوف أحد العوامل التي ساهمت في تغييب العقل الإسلامي، وفي توريث المجتمع الإسلامي رذائل خلقية، وفي استلاب نفسية المسلم، وجعله أنانياً يعيش لذاته، وجعله يعيش أوهاماً قاتلة حول الاتحاد بذات الله، أو الحلول به تعالى، أو وحدة الوجود.

٦ ـ ترسيخ الشعر الجاهلي:

يرى **أدونيس** أن ترسيخ الشعر الجاهلي كان عملاً مقصوداً من السلطة الإسلامية بدءاً من الخلافة الأموية(١٤)، وهو واهم في ذلك، وتفسير استمراره بدعم المؤسسات الحكومية له تفسير قاصر، فعلى العكس نجد أن الإسلام حارب كل أركان الجاهلية واستطاع تغييرها، وكان من ضمن ذلك تغيير بعض مضامين الشعر الجاهلي، وإن التفسير الأصوب لاستمرار الشعر الجاهلي يجب أن نتلمسه في عوامل ولادة الفنون، والظروف التي تساعد على نشأتها، وفي موقف الإسلام من الفنون بشكل عام.

يفسر أدونيس في كتابه تطورات المجتمع الإسلامي تفسيراً اقتصادياً طبقياً منطلقاً من ماركسية واضحة

تنطلق الفنون من النفس المأزومة(١٥)، وقد

استطاع الإسلام أن يحل أزمة هذا الإنسان، فأدى هذا إلى أن الأشكال القديمة لم تعد ملائمة للتعبير عن الإنسان المسلم غير المأزوم. ولكن الشعر الجاهلي استمر في صورته القديمة لفنيته العالية، التي فرضت نفسها على العصور التالية، وقد كانت القصة مرشحة بالفعل لأن تكون أبرز شكل فني يناسب التعبير عن الإنسان المسلم غير المأزوم، وممّا يؤكد ذلك استخدام القرآن الكريم لها في كثير من سوره، لكن القصة كانت آنذاك غير ناضجة الأبعاد الفنية في العصور السابقة، ولم تكن متداولة كشكل فني مستقل، مما حال بينها وبين القيام بهذا الدور، ومع ذلك فقد أبرز الكيان الإسلامي بعض الأشكال الفنية للتعبير عن الإنسان المسلم غير المأزوم، وأبرزها الخط الذي يجمع بين الجوانب الجمالية والعملية.(١٦)

وبالمناسبة فإن **أدونيس** خلط بين ترسيخ الشعر الجاهلي وبين ترسيخ اللغة العربية والحرص عليها، فإن الذي أكده القرآن الكريم والسنة النبوية والفقهاء والأصوليون هو ترسيخ اللغة العربية وليس الشعر الجاهلي نتيجة ارتباط النص القرآني وفهمه باللغة العربية.

والآن بعد أن عرفنا «الثابت والمتحول»: ونقدنا جانباً من مضمونه، ننتقل للتعرف على ديوان أدونيس الجديد فما هي صورته؟

■■ صورة الديوان:

يتألف الديوان من سبعة مقاطع، وهناك ثلاثة ملاحق:

الأول: تحت عنوان «أوراق عثر عليها في أوقات متباعدة، ألحقت بالمخطوطة»

والثاني: تحت عنوان «الفوات فيما سبق من الصفحات».

والثالث: تحت عنوان «توقيعات».

والمقاطع السبعة تشكل الجسم الرئيسي للديوان، وجاء كل مقطع من المقاطع السبعة مسلسلاً تسلسلاً أبجدياً، وكل صفحة مقسمة إلى أربعة أقسام: هامشان على اليمين واليسار، ووسط الصفحة مقسم إلى قسمين: الأعلى يشمل معظم الصفحة، والأدنى يشمل مساحة أصغر من الصفحة، ثم أتبع كل مقطع بهوامش، واتبع بعضها بمقطع سماه فاصلة استباق.

■■ ما مضمون الديوان؟

جاء الهامش الذي عن اليمين على لسان راو ينقل التاريخ الإسلامي بدءاً من اجتماع سقيفة بني ساعدة وينتهي في سنة ١٦٠ للهجرة، أما الهامش الأيسر ففيه إشارات وتوضيحات عن أزمان الروايات وأشخاصها ومصادرها بعض الأحيان، أما وسط الصفحة فقد جاء الحديث فيها عن المتنبي ونشأته وأبويه، وشيوخه ومعلميه، وسفره، وذهابه إلى بادية السماوة، وارتباطه بالقرامطة، وسجنه في حمص، وزيارته لأنطاكية، ولساحل بلاد الشام إلخ... وغير ذلك من وقائع حياته، أما الهوامش التي تلي المقاطع فقد تناول في كل هامش شخصية تاريخية وكتب عنها عدة أبيات.

وقبل أن أتجه إلى نقد الديوان سأتناول المقطع الأول وأستعرض مضمونه، لكي أعطي القارىء فكرة عن مضمون الديوان، وفي استعراض المقطع الأول سأبدأ بالهامشين ثم أنتقل إلى وسط الصفحة، ثم أنتقل إلى الهوامش التي جاءت بعد المقطع الأول.

■■ عرض المقطع الأول من الديوان «الكتاب: أمس المكان الآن»:

كرّس الشاعر **أدونيس** الهامشين للحديث عن التاريخ الإسلامي فتحدث عن سنة إحدى عشرة للهجرة وسمّاها السنة التأسيسية، وهي السنة التي وقعت فيها حادثة سقيفة بني ساعدة، والتي طلب الأنصار فيها تقاسم السلطة مع المهاجرين عندما قالوا: منا أمير ومنكم أمير، ثم ينسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله «قتل الله سعداً وسيقتل من لا يبايع من بايعته قريش».

ثم يزعم **أدونيس** أن حواراً جرى بين عمر وعلي رضي الله عنهما يأمر الأول الثاني أن يبايع أبابكر ويرفض الثاني، ويزعم **أدونيس** أن علياً رضي الله عنه قال: «وكيف أبايع من قال الله وقال رسول الله بأني أولى منه؟».

ثم يصور حرب المرتدين، وينقل جانباً من كيفية قتل المسلمين للفجاءة بن عبد ياليل وطليحة بن خويلد الأسدي ومالك بن نويرة، ويبرز زواج خالد بن الوليد رضي الله عنه من زوجة الأخير بعد قتله، ثم ينقل حواراً بين مسيلمة وسجاح بنت المنذر، ويصور زواجهما، ويوضّح أن الصداق الذي أعطاه لها هو رفع صلاتي الفجر والعشاء عن أتباعهما المرتدّين عن الإسلام.

ثم ينقل حواراً بين مُجّاعة بن مُرارة وخالد بن الوليد، يزعم فيه أن الأخير طلب الزواج من ابنة الأول، ويزعم أن قريشاً طامعة في المال، فيصور كيف أنها فرضت الذهب والفضة والكراع، ثم ينقل قولاً لعفيف الكندي أحد المرتدين يصور فيها أن المشكلة هي قريش وليس الدين الإسلامي فيقول: «تلك قريش: لا مخرج إلاّ الطاعة أو نفنى»، ثم ينقل أن أبا بكر رضي

الله عنه مات مسموماً، ثم يبيّن استلام عمر رضي الله عنه الخلافة، ويبرز بعض أعماله وأبرزها: معاقبة الشعراء على هجائهم، وإجلاؤه اليهود عن نجران وخيبر عام ٢٠ هـ ومقتله رضي الله عنه عام ٢٣ هـ.

ثم يبيّن وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ترشيحه ستة أسماء من الصحابة، ثم يوضح كيفية فوز عثمان رضي الله عنه بها واستئثاره وأقاربه بأموال المسلمين، ثم يصور المراحل التي مرت بها الفتنة حتى انتهت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم يبين انتقال الخلافة إلى علي رضي الله عنه، ثم يزعم أن لعائشة رضي الله عنها دوراً في قتل عثمان رضي الله عنه وفي محاربة علي رضي الله عنه، ثم يصور واقعة الجمل، ثم ينقل حرب صفين، ثم يصور كيفية قتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وأنهم أخذوا رأسه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن دكوه في جوف حمار، وعرّوه وأخذوا قميصه إلى نائلة زوجة عثمان رضي الله عنه التي رقصت ابتهاجاً بمقتله، ويختم المقطع الأول باجتماع الخوارج الثلاثة عبدالرحمن ابن ملجم المرادي، والبُرَك التميمي، وعمرو التميمي للتآمر على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم.

أما وسط الصفحة فإن **أدونيس** يتحدث فيها عن ولادة أبي الطيب المتنبي، وعن أبويه: أمه الهمذانية ووالده الجُعفي، ويتحدث عن أمل أبويه به، ويصور فقر أسرة أبي الطيب المتنبي، ثم يصور الكتّاب الذي دخله المتنبي، وعبثه فيه، ثم يتحدث عن السواد الذي كانت فيه الكوفة مسقط رأس المتنبي ونشأته، ثم يتحدث عن الأجناس التي عاشت في الكوفة وعاصرها الشاعر وتآلف معها، ثم يصور بيت أبي الطيب المتنبي، ثم يتحدث عن القرامطة الذين كانوا موجودين في الكوفة وفي السواد، ثم يصور الكوفة والتيارات التي كانت تصطرع فيها، ويبيّن نبوغ المتنبي فيها، ثم يصور تفاعل المتنبي مع الكوفة وثقافتها وقرامطتها، ويبرز الفقر في الكوفة خاصة والسواد عامة، كما يبرز دوره في تشكيل كيان الناس وكآبتهم، ثم يبين جانب القوة المسيطر في المجتمع، ثم ينتهي المقطع بذكر انتماء المتنبي إلى الشر والحصاد والرياح.

أما الهوامش التي تلي المقطع الأول فقد بدأها **أدونيس** بالأبيات التالية:

أتفيأ ـ أخرج من هذه الذاكرة
من مداراتها، ودواليبها الدائرة
أتفيأ أسلافي الآخرين
الذين يضيئون أعلى وأبعدَ
من ظلمة القتل، من حماة
القاتلين.

يقول الشاعر في المقطع السابق إن له صنفين من الأسلاف: صنفاً عاش في ظلمة القتل والقاتلين، وصنفاً كان مضيئاً، ويشير الشاعر إلى أنه سيخرج في هذه الهوامش من أسلاف الصنف الأول إلى أسلاف الصنف الثاني، وهو قد استعرض جانباً من أسلاف الصنف الأول وقد كانوا كما رأينا أبا بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم إلخ... أما أسلاف الصنف الثاني في الهوامش التي تلي المقطع الأول فقد كانوا: إبليس، تميم بن مُقبل(١٧)، لبيد، الشنفرى، عروة بن الورد، طرفة، امرؤ القيس، أبو محجن الثقفي.

■■ ملاحظات حول الديوان:

١ ـ عرض **أدونيس** التاريخ الإسلامي في الهامشين من الديوان بدءاً من واقعة سقيفة بني ساعدة التي حدثت في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وانتهى بواقعة خروج يوسف البرم على الخليفة المهدي في خراسان سنة ١٦٠ من الهجرة، وقد التقى **أدونيس** في عرضه للتاريخ في الديوان بشكل كامل مع عرضه له في «الثابت والمتحول» فهو في المكانين عرضه بصورة مغرضة، قصد منها التشكيك والإثارة، فقد صوره على أنه تاريخ صراع على السلطة، وأنه تاريخ بطش وإرهاب، وأنه تاريخ وحشي لا رحمة فيه، وأنه تاريخ صراع طبقي يتصارع فيه الفقراء مع الأغنياء بالمفهوم الماركسي، وأنه تاريخ قتل وموت، وأنه تاريخ حرب وطعن وحرق إلخ...

ليس من شك بأن تصوير **أدونيس** لتاريخنا بعيد عن الموضوعية بالإضافة إلى مجانبته الصواب، وهو تصوير سطحي لا يخرج إلاّ من حاقد على هذه الأمة.(١٨)

٢ ـ صوّر **أدونيس** المتنبي بالصورة التي يراها هو وليس بالصورة التي كانت عليها حقيقته، وأخذ بالروايات التي توافق هواه، فصوره على أنه قرمطي علماني عقلاني متشكك، كما صور الكوفة وكأنها مدينة مطحونة متمردة لا تعرف إلا الشك والتآمر.

يعلل أدونيس نشوء الفرق من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرها بعوامل سياسية بشكل عام ويربطها بفتنة عثمان بشكل خاص

٣ ـ لم يترك

أدونيس في الهوامش التي أتبعها مقاطع الديوان، أو في الملاحق الثلاثة التي ألحقها بالديوان، لم يترك أدونيس فاجراً أو زنديقاً أو داعراً أو متهتكاً أو سكيراً أو ساقطاً أو حاقداً إلاّ أورد عنه عدة أبيات في ديوانه، فلماذا؟

يقول أدونيس: إنهم مبدعون، ويقول: إنهم أسلافه(١٩)، ويقول: إنه منحاز للهامشيين والرافضين(٢٠)، فأن يعتبر أدونيس تلك الطائفة أسلافه وأن ينحاز إليهم فذلك شأنه، لكن أن يعتبرهم مبدعين فهذا ما لا يحتمل السكوت عليه، والحقيقة أنه ليس الإبداع الذي جمعه بهم، ولكن دورهم التخريبي المشترك في زعزعة كيان هذه الأمة، وهدم قيمها، والتشكيك في موروثاتها من أجل أن يكون الطوفان الذي يحلم أدونيس وأمثاله في تحقيقه.

٤ ـ أخذ أدونيس على بعض الشعراء السابقين نظمهم لأفكار محددة، واعتبر أشعارهم خروجاً عن حقيقة الشعر، واعتبرها نظماً لتلك الأفكار، ومثّل على ذلك بقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هي أول وهو المحل الثاني

وبقول زهير بن أبي سلمى:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم(٢١)

لكنه مع الأسف وقع فيما أخذ على غيره، وليس في قصيدة واحدة إنما في كثير من المواضع في ديوانه، مما جعل هذا الديوان كتاب تاريخ وليس ديوان شعر بالمعنى الحقيقي.

٥ ـ استهدف أدونيس في مسيرته الأدبية التجديد حسب زعمه، وقد كان من ضمن أهدافه التجديدية: تدمير اللغة العربية(٢٣)، التنظير لقصيدة النثر وترويجها، ابتكار أشكال شعرية جديدة، إيجاد لغة شعرية جديدة إلخ.. ويمكن أن نضع ديوانه الجديد «الكتاب: أمس المكان الآن» ضمن هذا الاستهداف للتجديد في الشكل والمضمون: أما التجديد في الشكل فذلك واضح من تقسيمه لصفحة الديوان، أما التجديد في المضمون فذلك واضح من الرؤية الهادمة التي عرض فيها التاريخ الإسلامي وحياة المتنبي هذا إذا جاز لنا أن نعتبر الهدم تجديداً.

والسؤال الآن: لماذا استعرض التاريخ الإسلامي في الهوامش مع أن مادة الديوان الرئيسية حياة المتنبي؟

المقصود من ذلك هو محاصرة القارىء وزيادة إشباعه النفسي والعقلي بمعاداة تاريخه، وازدرائه والتخلص من قيمه، وإشعاره أن وقائع حياة المتنبي مستمدة من ذلك التاريخ، وأن ذلك التاريخ الأسود لن يفرز إلاّ حياة بائسة مضطربة كحياة المتنبي، وأنهما متكاملان: التاريخ والحياة.

والحقيقة أن أدونيس في كل ما استهدف متأثر بالتجارب الغربية، وبالشعر الغربي، واللغة الغربية، ويمكن أن ندلّل على ذلك بتنظيره لقصيدة النثر في الخمسينيات، والذي نقله عن كتاب «قصيدة النثر من بودلير حتى أيامنا هذه» للكاتبة «سوزان برنار»

ليس معنى هذا أننا ضد أي محاولة للتأثر والتأثير، الأخذ والعطاء، بل نحن معه، مع النمو الطبيعي، شريطة أن ينبني على تراثنا الأدبي وينطلق منه، كما فعل أبو تمام الذي جاء مذهبه المتمثّل في «التصنيع»(٢٢) مبنياً على مذهب «الصنعة» الذي ورثناه من الشعر الجاهلي، فكان فعله بناء، في حين أن ما يفعله أدونيس هدم، لأنه ينقل تجارب من أمم أخرى يريد أن يفرضها على الأمة، بعد أن يهدم كل ما بنته أمتنا.

٦ ـ لقد جاءت جملته الشعرية واضحة نوعاً ما على غير عادته، إذ يكتنف الغموض معظم أشعاره السابقة، وربما جاء وضوحها من الموضوعين اللذين دار حولهما الديوان وهما: التاريخ الإسلامي والمتنبي، كما جاءت الجملة الشعرية مركزة، وقد وضع في تركيزها كل مهارته وخبرته، وزاد من جمالها الموسيقى التي جاءت من التفعيلة التي أخذ بها في معظم الديوان ما عدا بعض المقاطع وبالذات في فواصل الاستباق فقد لجأ فيها إلى النثر.

٧ ـ لقد حفل الديوان بتجاوزات في حق الذات الإلهية، والشرائع الدينية، وسأورد بعضاً منها على سبيل المثال لا الاستقصاء والحصر:

١ ـ قال أدونيس عن جبريل عليه السلام:(٢٤)

جاء جبريل في غيمة
وسقى كوفة الظامئين بأسراره
جاء في كوكب
ورمى وجهه في تقاطيعها
جاءها في كتاب
آدم من تراب، ونوح نُواحٌ
والبقية تفاحة.

٢ ـ قال أدونيس عن الله جلّ وعلا في مقطع آخر:(٢٥)

قتلى ودعاة
ودعاة وقتلى
والناجون دماء مهدورة

أُصغي لأراغن هذا النوح
الطالع من أنقاض الوقت
النازف من أعناق مكسورة
ما أخفى فيها صوت الله
كأن الله الصمت

٣ ـ قال **أدونيس** محاكياً القرآن الكريم:(٢٦)

قال صوت لصوتي
والضحى، يسطرون
كل مالا يرون ولا يعلمون

٤ ـ قال **أدونيس** ممجداً كرسي الحكم:(٢٧)

سبحانك، يا هذا الكرسي
مصنوعاً برؤوس قطعت
مصبوغاً
بدم طفل حيناً، شيخ حيناً
مُنْسولاً، جزءاً جزءاً
من أحلام نبي،
سبحانك يا هذا الكرسي

□□□

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها هي أن **أدونيس** اجتهد أن يكون هذا الديوان «**الكتاب: أمس المكان الآن**» خاتمة أعماله، لكنها كانت خاتمة سوء، فهي قد جاءت هدماً في الشكل والمضمون، وقد كان هناك تطابق واضح بين مضمون الديوان ومضمون كتابه السابق «**الثابت والمتحول**» والذي مجّد فيه حركات التمرد والزندقة والقرمطة في تاريخنا، والذي أعلى فيه من شأن الملحدين والساقطين وهو قد فعل كل ذلك انطلاقاً من تقديسه الكامل لقيم الحضارة الغربية، واستسلامه المطلق لأسسها التي قامت عليها، مما جعل أحكامه جائرة على تاريخنا، تنافي الصواب في عمومها، وتبتعد عن الحق في استكشافها لقوانين الإبداع وأصوله في أمتنا، وانعكست صورة الأحكام على ديوانه فجاء مملوءاً بالقتل والإجرام والفتك والسفول، وهذا ما قصده **أدونيس** ليجعل القارئ المسلم مشبعاً بالحقد على تاريخه وباليأس من قيمه.

■■ الهوامش:

* كاتب فلسطيني، له أبحاث منشورة في عدد من الصحف والمجلات، من مؤلفاته: الفكر الإسلامي المعاصر ـ دراسة وتقويم، وجذور أزمة المسلم المعاصر ـ الجانب النفسي

(١) ـ انظر المقابلة التي أجرتها معه مجلة «الوسط» عدد ٢٥٥ الصادر بتاريخ ١٩٩٦/١٢/١٦م.
(٢) ـ أدونيس، صدمة الحداثة، ص ٢٨.
(٣) ـ المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٢.
(٤) ـ أدونيس، الثابت والمتحول، ج ١ ص ١٤٨.
(٥) ـ المرجع السابق، ج١ ص ١٨٥.
(٦) المرجع السابق، ج ١ ص ١٩٣ ـ ١٩٧.
(٧) أدونيس، الثابت والمتحول، ج ٢ ص ٧٤ ـ ٧٦.
(٨) ـ المرجع السابق، ج ٢ ص ٨٠ ـ ٨٥.
(٩) ـ المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٧.
(١٠) المرجع السابق، ج ٢ ص ٩٩.
(١١) ـ انظر تفصيل هذا الرأي في فصل «اقتصاد متفرد» من كتابي «النكسة في بعدها الحضاري» ، ص ٨٠.
(١٢) ـ أدونيس، الثابت والمتحول، ج ١ ص ٢٧٢.
(١٣) ـ انظر تفصيلاً لهذا الرأي في كتابي «أبو الأعلى المودودي: فكره ومنهجه في التغيير»، ص ١٦٧.
(١٤) ـ انظر رأيه ذلك في الجزء الأول من كتاب «الثابت والمتحول» ص ٢٧١ وما بعدها.
(١٥) ـ انظر تفصيل ذلك الرأي في كتاب «منهج الفن الإسلامي» لمحمد قطب، ص ٨.
(١٦) ـ انظر تفصيلا لدور الخط في التعبير عن النفس غير المازومة في كتابي «النكسة في بعدها الحضاري»، ص ٦٨ وما بعدها.
(١٧) ـ في تعريفه لتميم بن مُقبل يقول أدونيس عنه: إنه كان في بداية إسلامه يحنّ إلى الجاهلية ويمجّدها، ويبكي أهلها، ويشعر بغربة في الإسلام ويقول: «ليت الفتى حجر».
(١٨) ـ إن تاريخ أدونيس الشخصي يرجح هذا الأمر حيث انتمى إلى الحزب القومي السوري في بداية حياته الشعرية، وهذا الحزب لا يعتبر أن هناك أمة عربية أو إسلامية، بل هناك أمة سورية تسكن بلاد الشام وهي امتداد للفينيقيين والسريان.
(١٩) ـ كما رأينا في تقديمه للهوامش التي تلي المقطع الأول.
(٢٠) ـ انظر مجلة «الوسط» العدد ٢٥٣ الصادر في ٩٦/١٢/٢ حيث يبرز هذا الرأي.
(٢١) ـ انظر رأيه ذاك في كتاب صدمة الحداثة، ص ٢٨٨.
(٢٢) ـ انظر أقواله حول هذا الهدف في مجلة الوسط العدد ٢٥٥ الصادر بتاريخ ٩٦/١٢/١٦.
(٢٣) ـ انظر كلام شوقي ضيف عن هذا المذهب في كتاب «الفن ومذاهبه في الشعر العربي»، الطبعة الرابعة، ص ٢١٩ وما بعدها.
(٢٤) ـ أدونيس «الكتاب: أمس المكان الآن» ص ٢٥.
(٢٥) ـ المرجع السابق، ص ١٩٨.
(٢٦) ـ المرجع السابق، ص ٢٥٤.
(٢٧) ـ المرجع السابق، ص ٢٩٦.

□□□

مسرحية

بقلم:
صالح محمد المطيري

أضاعوني

□□ أشخاص المسرحية
- أبو حنيفة
- حسان الإسكاف
- زينب امرأته
- حاكم البلد
- صاحب الشرطة
- أناس وجنود وآخرون

□□ زمن المسرحية
أواسط القرن الثاني الهجري.

□□ مكان المسرحية
البصرة

□□ المنظر الأول

(الدنيا ليل...
يزاح الستار فنرى على المسرح بيتاً متواضعاً من الداخل، يدل من نظرة واحدة على أنه بيت رجل فقير معدم، تتوسط المسرح باحة البيت الصغيرة نوعاً ما، يحتل نصفها فراشٌ رثّ، يدخل حسان الإسكاف، رجل في الثلاثين من عمره، أقرب ما يكون إلى الطول، عليه زي الصُنَّاع، حاملاً عدة صناعته على كتفه، إنه متعب، يبدو أنه قادم من مسيرة طويلة... يدخل إلى باحة البيت، ويقعد على الفراش الرث، واضعاً عدته إلى جواره. ينادي...)
حسان: يا امرأة!

(... بعد لحظات تظهر امرأته زينب، أصغر من الثلاثين بقليل، في وجهها ملامح من كان يعاني النعاس، وبدا ذلك واضحاً في صوتها، وقد لفت كتفيها بغطاء قديم، بدت خيوطه المهلهلة تموج ذات اليمين وذات الشمال، في محاولة لدرء برودة الثلث الأخير من الليل)

زينب: نعم، ها أنت قد جئت! لقد كاد الصبح أن يطلع ولَمّا تأت.

حسان: (بصوت مرهق) اسكتي يا امرأة، هل نام الصبية؟

زينب: (مستغربة) أقول كاد الصبح أن يطلع وتقول هل نام الصبية!

حسان: (مغيراً لهجته) ماذا أفعل يازينب! لقد كلّت رجلاي من طول المشي، فقد ذهبت اليوم إلى البصرة سيراً على قدميّ!

زينب: مربد البصرة! وما دعاك إلى الذهاب إلى هناك؟

حسان: إنه سوقٌ كبير، ينصرف إليه الناس من كل مكان، فلما أتيت سوق البصرة اليوم، مكثت طويلاً ولم يأتني أحد، فعلمت أن الناس قد ذهبوا إلى المربد.

زينب: (تقعد على طرف الفراش) وماذا فعلت بعد ذلك؟

حسان: لقد احتملت عدتي على ظهري وذهبت إلى هناك، فوصلت بعد الظهر، ومكثت فيه إلى قريب من المغرب، حين انفض الناس وتقوض السوق، فكررت راجعاً إلى البصرة!

زينب: (بدهشة) منذ ذلك الوقت وأنت تسير؟ لهفي عليك يا حسان! ألم تجد مندوحة من كل هذا العناء؟

حسان: (يميل على شقه) نعم، إنه بعيد من البصرة، ولم أجد أحداً يحملني من هناك **(يضع عمامته)** منذ غابت الشمس وأنا أغذ السير، ملتحفاً السُّرى، فكنت أسير حتى أتعب، فأستريح قليلاً ثم أواصل سيري.. ولم يخفني في هذا الليل مثل أن أقع في يد أحد أولئك الشطار والعيارين! ولكن الله سلّم!

زينب: (بشفقة) فداك أبي وأمي! يا حسان، وماذا يريد منك اللصوص وأنت إسكاف مسكين لا تملك إلا مخارزك الصدئة وخرجك المبطن بأوضار النعال!

حسان: (يحك رأسه) أية خرج وأية مخرز يا امرأة؟ يكفي أن يروا خيال إنسانٍ يسير وحده الليل ليقتلوه ويسلبوا ما معه، مهما كان حقيراً. بالأمس قتلوا رجلاً من بني قشير ولم يجدوا معه إلا عصا فيها سيرٌ مبتورٌ نصفه! فسلبوه إياها وتركوه طعمة للغربان وطيور الفلاة!

زينب: أبعد الله عنك كل مكروه، وسلّمك لأهلك وعيالك! لابد أنك خفت أن يسلبوك ما أحرزت، بُعداً لهم وتعساً، قل لي بالله عليك كم كسبت بعد هذه الرحلة الشاقة على قدميك؟ **(تقوم إلى طرف الباحة فتحضر إناءً فيه ماء).**

حسان: لا تسأليني كم كسبت، بل قولي كم خسرت! لقد كانت هذه الرحلة ضغثاً على إبّالة! **(يستوي فيضع رجليه في الإناء).**

زينب: (تدلك رجليه مستسلماً) وكيف ذلك؟ «متعجبة» ألم تذهب إلى هنالك لتكسب أكثر؟

حسان: (مستريحاً لما تفعل) آه، أحسن الله إليك يا أم عمرو، لقد تفطرت قدماي من المشي! **(مواصلاً كلامه)** لا، ليس الأمر كما تظنين، فما ذهبت إلى هنالك إلا لما رأيتُ من قلة الناس في سوق البصرة، الذي أجلس فيه كل يوم ولم أحصل من ذهابي على شروى نقير!

زينب: وكيف ذاك يا حسان؟

حسان: (يستند على ظهره) لا أدري! ربما أن الناس يفضلون شراء حذاء جديد على ترقيع القديم، ومن العجب أني رأيت قوماً يتأبطون نعالهم ويمشون حافين، خوفاً عليها من البلى! فلم جُعلت النعال إذن! ولقد رأيت بعضهم يمشي حافياً عند تساقط النبق من الشجر، خوفاً على حذائه من الضرر! سبحان الله! يشفقون على نعالهم ولا يشفقون على أقدامهم!

زينب: (في ابتسامة قصيرة لما يقول) هل تعني أنه لم يأتك أحد؟

حسان: لا بل قد جاءني أحد، وليته لم يأتني ولم يقف علي! **(بحنق)** تبّاً لها تلك النعال اللعينة! لقد تكسرت معي ستة مخارز وأنا أحاول إصلاحها! ومن قسوة تلك النعال يخال المرء أنها قُدّت من الصوّان وليس من الجلد!

زينب: وكيف حدث ذلك؟

حسان: لقد جاءني بعدما وصلت إلى السوق رجل مروزيٌ يريد إصلاح زمام حذائه الذي بلي من القدَم، فتأملت العطب قليلاً من الوقت، ثم شرعت في محاولة رأب انقطاعه، ووصل أسبابه، ولقد تكسرت معي ستة مخارز وأنا أحاول جاهداً إصلاحه، ولكن دون جدوى. فلما وضعت المحاولة أوزارها، وعجزت وسائلي عن اختراقها، التفت إلى صاحبها، فقلت له: اتق الله يارجل! نعلك هذه لا ينفذ فيها السيف الصقيل، فكيف بالمخرز الكليل! فنظر إليّ وقال: مرة أخرى، يعز عليّ فراقها، لن أرميها أبداً، لقد حججتُ بها! فسألته ضاحكاً: هل حججت بها أم هي حجتْ بك؟

قاتل الله أهل مرو! فإنهم لو استطاعوا لصنعوا من الصخر نعالاً! وذلك من شدة بخلهم وحرصهم على ألاّ يصيبها البلى والاهتراء! وهو مصيبها لا محالة!

زينب: (قائمة) لا عليك يا حسان، لقد بلغ منك التعب والجهد، لقد جاوزنا منتصف الليل، فأدرك ما بقي منه ونم هزيعاً وأرح جسمك قبل أن تغدو باكراً إلى صنعتك.

حسان: (يقوم هو الآخر) آه، صدقت كم أنا في حاجة إلى النوم، بعد تلك المشقة التي احتملتها، ولم أخرج منها إلا بزيادة الخيبة والخسران

(يخرجان)

○○○

□□ المنظر الثاني

(لايزال المنظر في الليل...

نرى المسرح مقسوما نصفين. نصف على اليمين يمثل بيت الإسكافي بوصفه السابق، والنصف الأخر يمثل جزءا من بيت أبي حنيفة، جار الإسكافي، حيث نشاهد فيه فناء صغيراً تحيط به أبواب الغرف القليلة، وأبو حنيفة، أشيب، قد ذرّف على الخامسة والستين من عمره، تتوج وجهه لحية بيضاء وقور، وقد رسم التقدم في السن خطوطاً متوازية على جبهته، وبمحاذاة صدغيه، متلفعاً بطيلسانه الذي علقه على كتفيه، ومعتجراً عمامته، تدلت منها ذؤابة إلى الخلف، متوسطاً فناء بيته، مستقبلا القبلة، يصلي كما هو شأنه في ليله، ويسلم كل ركعتين. يدخل الإسكاف إلى بيته، فتسلط الأضواء عليه، يبدو عليه التعب كعادته، يضع عدته جانباً، وينتحي جانب الحصير الممدود في الباحة الصغيرة، يجلس)

حسان: (لنفسه) آه، ها قد جئت الآن، إلى بيتي لأنال شيئا من الراحة، وأريح جسمي المنهك، وقواي الخائرة، ثم أغدو صباحا برفقة مخارزي ومرقعاتي إلى مصطبتي لأرقع نعال العباد...

زينب: (وقد بصرت به) ها قد جئت ياحسان!

حسان: نعم وإني لمتعب وجائع فهل عندك مايؤكل؟

زينب: (تضرب كفا بكف) ليس عندي إلا ما قد علمت!

حسان: (يهز رأسه) أعرف، خبز شعير يابس!! لا بأس! أحضريه الآن، فإنه أفضل من أن أنام خاوي البطن!

زينب: (تذهب وتحضره) ها هو ذا!

حسان: هذا نصفه! فأين النصف الآخر؟

زينب: كسّرته للصبية وبللته ماء وقدمته لهم، ولولاه ما ناموا.

حسان: (للجمهور) تبا للفقر يبخسنا حتى خبز الشعير اليابس!

(تذهب زينب وتحضر ماتبقى منه)

زينب: (تضع أمامه قطعة الخبز في صحفة ومعها إناء ماء) هذا هو يا حسان، كل وتناول عشاءك! كيف عملك اليوم؟

حسان: (يتناول كسرة من الخبز) أبداً مثل كل يوم! تعب وشقاء وشمس، ومعاناة لأحذية الناس بكل ما فيها من أذىً وقذارة! مقابل دوانق زهيدة لا تكاد تجزئ كل هذه السخرة!

زينب: (تجلس قبالته) أعانك الله يا حسان، هذه هي الحياة!

حسان: (يمضغ كسرة أخرى) نعم! هي كذلك، لكن مادام هناك شيء يؤكل، مهما كان حقيراً، فهو أحسن من لا شيء بالتأكيد! (يمكث ليتناول بقية ما أحضرته له، ثم يلتفت إليها ويقول بلهجة آمرة) أقول لك يا امرأة، قومي إلى تلك الخابية في مطبخك، وأحضري لي قنينة وضعتها فيها البارحة.

زينب: (بذعر) حسان! يا ويلي ويا سواد ليلي! قنينة ماذا؟ ويلاه! أوصرت تشربها بالقناني بعد أن أذهبت قوت عيالك في أسفاطها المهترئة!

حسان: (بنظرة غاضبة) اذهبي وأحضري ما قلت لك!

زينب: (قائمة) اتق الله يا حسان! وأبق لعيالك شيئاً من قوتك، وارحم رأسك المتعب وجسمك المنهك، أيسرك أن تسكر وتعربد وعيالك يتضورون جوعاً!

حسان: (منفجراً) أف، كفى! كفى! اغربي عن وجهي وكُفّي عن رقائقك وعظاتك، وانجحري إلى عيالك ودعيني أحيا ساعتي، بعد أن قتلني العمل، ونخرني الكد، وبلغ مني السعي وراء لاشيء! أبهذه الحال تقابلينني، وتبشين في وجهي!

زينب: (محاولة تهدئته) كل ما أرجوه أن أثنيك عما أنت منكفئٌ فيه من....

حسان: (مقاطعاً، ومشيراً بقبضته) سُحقاً لك وخُسْراً! تالله إنك للكَاع التي عناها الشاعر:

أُطوِّف مـــا أُطوِّفُ ثم آوي

إلى بيت قعيدته لكاع!

زينب: (دامعة) سامحك الله يا حسان! أأنا لكاع! أأنا لكاع! أقوم على خدمتك، وأرعى شئونك، وأسهر على راحتك، وأربي صبيانك، وأقوم ببيتك، ثم تقابلني بهذا الوصف الوضيع؟

حسان: (مندفعاً) أقصري أيتها المرأة! وإلا قمت وأدبتك! **(يهم بالقيام بسرعة، فتهرب المرأة وتدخل حجرة الصبية، تتبعها الإضاءة، تصفق على نفسها الباب وهي مذعورة، أحد الأولاد يشعر بها، من بين عدة أجسام منحشرة تحت لحاف خَلِق، فيقوم إليها ويقول.....)**

الصبي: (متحسساً أمه) مالك يا أماه؟ صفعت الباب وأنت خائفة! هل هناك لصٌ بالبيت يتهددك؟!

زينب: (تهدئ من روعها) لا يابني ليس لصاً، ولا شيء هناك، نم يابني، ولا عليك!

الصبي: إذا لم يكن لصاً فلا يكون إذن إلا أبي! عجباً لماذا هذه الأصوات كل ليلة؟ ألاينام في الليل مثل ما ينام الناس؟

زينب: (زاجرة) اسكت أيها الولد، نم،

أضاعوني

قلت لك لا شيء هناك، هيا نَمْ ولا عليك.

الصبي: (منصاعاً) حسنٌ، سأنام، ولكن أبي لا يجعلنا ننام!

(يعود المنظر إلى باحة البيت، حسان قد أحضر قنينة الخمر بنفسه، بدأ يصب منها في كأسه).

حسان: (متأملاً الكأس وفيها الشراب) صهباء معتقة! اتخذت من قبل الطوفان بعشرة أعوام، وظلت حبيسة الدن على كر السنين والقرون، ومع ذلك تبدو شابة فتانة، ولونها أصفى من عين الديك، ولها حَبَبٌ يتطاير فينعش الروح قبل أن يخامر الروح، ولها دبيبٌ في الجسم كدبيب البُرء في السقم، وإن كان العكس هو الصحيح! **(ينظر إلى الجمهور بابتسامة ساخرة)** وتنفث خدراً لذيذاً يسري في الجسم والمفاصل...

ثم ينهي تأملاته الشاعرية بتجرع عدة كؤوس منها.. يضع الكأس جانباً، يبدو وكأنه يتنفس الصعداء، يميل إلى نمرقة ممزقة جواره فيتكيء عليها، يمكث هنيهة وهو متكيء.. بعد فترة من الوقت يبدو أن الخمر بدأت تعمل عملها، يرفع رأسه، وينظر نظرات حالمة، بجفون مسترخية، يغمض عينيه بشدة، ويفرك جبهته بيده، يبدو أنه يشعر بصداع عنيف، لحظات... تخف حدة الصداع، ويعود إلى حاله السابقة ونظراته الحالمة، وجفونه المريضة، يتمتم بكلمات مسموعة..)

حسان: (لنفسه، متأففاً) لحاها الله خَمرة يهود! **(يبصق)** رأيتها في القناني المشوقة فحسبتها أفضل من ذي قبل، عندما كنت أشتريها في تلك الأوعية القذرة المليئة بالشوائب والقذى، فإذا هي هي! نفس الطعم ونفس القذارة! مغشوشة محلولة! اختلف الشكل والمظهر، لكن اتحد المحتوى والمخبر! **(يشير بيديه)** ماذا أفعل؟ ما باليد حيلة! لم تمكّني دوانيقي القليلة من سباء المطهمة العتاق، فانتكست إلى اقتناء الملوثة الزُعاق! شُلّت يداك يانسطاس الخمار! أنت وشرابك الرخيص المخلوط! اعتصرتك المنون! أنت وعصيرك الحازر المجوج! تعطيني عصارة الحصرم وتستأثر بخلاصة الزبيب! ترتشف الرحيق ثم ترمي إليّ بالحثالة! **(يشير بوجهه)** آه، الآن فهمت! تريد أن تثأر لدريهماتك المتأخرة! وتنفس عن إحنك المترسبة! **(يشير بازدراء)** ولكن هيهات! لقد أبعدت مرماك، وجاءت الأمور عكس هواك! فلن تنال فلساً واحداً مني! خصوصاً مع تدهور الأجور وتتابع الأزمة والثبور، نعم لتبق هكذا! تجتر غيظك عليّ، حتى ينضج قلبك منه! نعم! لتخسأ أيها القذر! آه، اسكت!.. أراك تبتسم في سخرية! آه ماذا تقول؟ تظن أني لا أستغني عنك، وأني لن ألبث أن أعود إليك، وأني سآتيك متضرعاً متذللاً أستقرضك بعض عصيرك، وأستمنحك بعض خمورك، وأنك ستطردني شر طردة، ولن تسلفني البتة! لا، لا لا يا أيها العلج! ليس الأمر كما ظننت! لن أحتاج إليك! ولن أقف على بابك! لأني عندها سأحل ضيفاً على ذلك الراهب المعتصم بديره، آه نعم، عرفته إذن! نعم ذلك الراهب الذي يقطن بظاهر البلدة بجوار ذلك التل الصغير، يكفي فقط أن أنظف له حذاءه، أو أصلح بعض شأنه ليترعني بعدة أقداح، من تلك الراح، نعم! أنت لا تعرفني حق معرفتي، ولا تقدرني حق قدري! أنا حسان الإسكاف! كل الناس، صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، وجيههم ووضيعهم، ينحنون إلى مصطبتي في ذلة وخضوع، لكي أصلح لهم نعالهم!

(بغيظ) تباً إن الناس لا تقدرني، ولا تدرك مكانتي ولا تعاملني بما أنا أهلٌ له. **(بأسف)** حقاً ياللضياع! وياالضيعة الموهبة والإبداع! صدقوا! لا كرامة لنبي في وطنه، ولا لمبدع في أهله! ولا لكريم في قومه!

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

واحسرتاه! (يهز رأسه إلى جانبيه متأسفاً ويردد)

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

(يردد بانسجام وتفاعل، يرفع صوته أكثر من ذي قبل، يبدو أن المقطع حاز إعجابه ووافق هواه، يواصل غناءه بترجيع وتلحين مختلط بالسُكار)

أضا.. عوني.. وأي فتى أضا... عوا

ليوم ك.. ريهة وسداد.. ثغر

.... كأني... لم أكن فيهم.. وسيطاً..

ولم تك نسبتي في آل عمرو...

(يضيء جانب المسرح الذي نرى فيه جزءاً من بيت أبي حنيفة...

الصوت يصل إلى أبي حنيفة في بيته وقد فرغ لتوه من صلاته، يضم عباءته على نفسه، ثم يشرع في التسبيح والذكر الذي يتلو كل

صلاة.... بعد وقت قصير ينتهي من تسبيحه...)

أبو حنيفة: (بأسى) لا حول ولا قوة إلا بالله! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لم يزل هذا دأبه منذ جاورته وعرفته، إذا جنه الليل وسكن إلى بيته بعد أن سكنت المخلوقات ونام الناس وهدأت الرِّجْل يعمد إلى أم الخبائث وأصل الشرور، فيعكف عليها حتى يتحول إلى مجنون لا ينام الناس من صوته وزعيقه، ولا يهدأ الليل من غنائه وترجيعه! كان الله في عون زوجته وأولاده! إني لأتعجب كيف يتحملونه ويصبرون عليه وهو على هذه الحالة من مواصلة القصف والعربدة! إني لأرثي له ولأولاده!

(يتأثر أبو حنيفة، ثم لا يلبث أن يرفع يديه بالدعاء...) اللهم اهد جاري المسكين فإنه من الجاهلين! اللَّه اهد جاري المسكين فإنه من الجاهلين! اللهمَ اهده إلى الصراط المستقيم، واكشف ما به من البلاء والمعصية، وأنقذه من أم الخبائث واصرف عنه خُمارها وودها وأرشده إلى طريقك القويم، فإنه لا يعجزك شيء في السموات ولا في الأرض.

يا رحمن يارحيم إنك على كُلِّ شيء قدير! **(ينتهي من دعائه، ثم يقوم)**

يخرج

○○○

□□ المنظر الثالث

(أبو حنيفة كعادته يصلي ليله..

يبدو أن وقت الفجر قد قرب وهو في آخر صلاته.. يفرغ من صلاته ويسلم، يمكث وقتاً قصيراً يسبح ويذكر الله ويدعو بما شاء من دعائه، ينتهي من ذكره، يلتفت برأسه وكأنه تذكر شيئاً افتقده...)

أبو حنيفة: سبحان الله، مضى أسبوعان وأنا لم أجد لجاري حساً ولم أسمع له صوتاً! وقد كان يمضي ليله في السكر والعربدة، ويزعج النائمين بغنائه وتخيلاته! حتى أصبحت له عادة لاتكاد تفارقه، عندما ينقلب راجعاً إلى بيته! فلماذا انقطع عنها فجأة، إني لأعجب من ذلك، سبحان الله، إن له لشأنا!

(يُسمع أذان الفجر منطلقاً من مآذن البصرة.. بعد نهاية الأذان يقوم أبو حنيفة مستنداً إلى عصا بجواره فيصلي نافلة الفجر. ينتهي من صلاته ثم يمضي إلى المسجد ليؤدي فريضة الفجر)

يخرج

○○○

(يبقى أبو حنيفة في المسجد بعد صلاة الفجر، حيث يلقي على تلاميذه درساً من دروسه اليومية، يستمر الدرس حتى طلوع الشمس، بعد ذلك ينصرف أبو حنيفة عائداً إلى بيته، تضاء أنوار المسرح على الجزء الخاص ببيت أبي حنيفة، يبقى الجزء الأخر الذي يمثل بيت الإسكاف مظلماً. يدخل أبو حنيفة)

أبو حنيفة: (منادياً الجارية) يامرجانة...

(تخرج مرجانة من إحدى الغرف)

الجارية: (بصوت المستيقظ من النوم) نعم يامولاي...

أبو حنيفة: هل استيقظ أهل البيت مبكرين؟

الجارية: نعم يامولاي، لقد استيقظوا مبكرين، هل لك من حاجة؟

أبو حنيفة: (يتهيأ للجلوس) نعم يامرجانة لي حاجة أرجو أن تؤديها أنت بنفسك **(يستوي جالساً)** إن جاري هذا **(يشير بيده جهة بيت الإسكاف)** مضى أسبوعان بتمامهما ولم أجد له حساً، وله أولاد وزوجة بالبيت، فلو ذهبت إليهم لتنظري لي ما حالهم، ولتستخبري لي عن أبيهم، فلربما أصابه شيء أو حدث له مكروه.

الجارية: سمعاً وطاعة يامولاي، ها قد ارتفعت الشمس، وسأذهب للتو.

أبو حنيفة: عودي إليَّ هنا، فأنا منتظرٌ في البيت.

(يدخل أبو حنيفة إلى إحدى الغرف، تخرج الجارية، يظلم جانب المسرح الخاص ببيت أبي حنيفة، يضيء الجانب الخاص ببيت الإسكاف، يُسمع طرقات على الباب، تخرج زينب زوجة الإسكاف من إحدى الغرف ذاهبةً لتنظر من الطارق، تفتح الباب فإذا مرجانة، خادم أبي حنيفة)

مرجانة: (بلهجة رزينة) السلام عليكم.

زينب: (باستغراب) وعليكم السلام.. من أنت؟ وماذا وراءك أيتها المرأة؟

مرجانة: أنا مرجانة، جارية جاركم أبي حنيفة.

زينب: (مطمئنة) أهلاً ومرحباً، ما وراءك يامرجانة، هيا هلمي بالدخول، لن تظلي واقفة هكذا، ليس بالدار أحد إلا أنا والأولاد.

مرجانة: (بطريقة مهذبة) معذرة إني في عجلة من أمري، لا أستطيع المكوث هنا، لقد بعثني سيدي أبو حنيفة لأنظر حالكم، وأستخبر له عن زوجك لأنه افتقده منذ مدة.

(الصِّبْية في الداخل كأنهم سمعوا الصوت الغريب، فخرجوا إلى باحة البيت حيث الأم والجارية مرجانة واقفتان لدى الباب، يأتون إلى أمهم ويتحلقون حولها ليستطلعوا هذه الزائرة الغريبة، وهم ثلاثة أولاد

وبنتان)

زينب: (**متنهدة**) ماذا أقول لك يا مرجانة! لقد مر أسبوعان وزوجي غائب، لا أدري أين هو؟ وكان قبل ذلك لايكاد يغيب يوماً واحداً، لا في سفر ولا في غيره.. ولا أدري ما أصابه، وحدا به إلى مثل هذا الغياب. أبيت كل ليلة ساهرة أنتظره، لأنه يعمل سحابة يومه ولا يأتي إلا في الليل. ما أعظم ما أقلقني وبرح بي غيابه بهذه الفجاءة.

مرجانة: (مواسية) لا حول ولا قوة إلا بالله، أعانك الله، وربط على قلبك، وردّ غائبك!

زينب: (**مواصلة بنفس اللهجة**) في كل مرة يسألني الصبية عنه ولماذا غاب كل هذه المدة.

مرجانة: ألم يأتك خبرٌ عنه، ألم يخبرك أحدٌ بشيء؟ ألم تبحثي عنه؟

زينب: لم أجد خبراً أكيداً عنه حتى الآن. ولقد بعثتُ إلى رفاقه الصنّاع فلم يفيدوني بشيء عنه، وتجولت في السوق حيث كان يعمل فلم أجد له أثراً، وسألتُ أهل السوق عنه فقالوا إنهم لم يروه منذ غيابه، ولا يدرون مصيره (**تطفر منها دمعة**) وأخشى ما أخشاه أن تكون اصطلمته جائحة، أو غرق به مركب، أو قتله اللصوص وهو ذاهب في بعض شأنه، (**ضارعة**) وازوجاه! فداك أبي وأمي! سلّمك الله من كل مكروه! (مواصلة حديثها) ولا أستطيع الخروج للبحث عنه في محالّ البصرة، حتى يقدم أهلي من الكوفة فيبحثوا عنه.

مرجانة: هل يعني هذا أنك لم يصلك خبرٌ عنه البتة؟

زينب: ليس هناك خبرٌ أكيد يقودني إليه، كل ما وصلني هو تخرصات وظنون من مثل تلك التي ذكرت، وكل ذلك زاد في همي وحزني، لقد بدأت أحس مرارة الفقد والثكل (أصغر الأولاد ينحشر إلى حجر أمه وينظر ببلاهة إلى الجارية، الأم تمسّد رأسه بحنان).

مرجانة: هكذا إذن، كلها أقوالٌ غير مُطمَئِنة.

زينب: هذا ماسمعت، وما خطر ببالي لأول وهلة! أرجو من الله أن تخيب كل هذه الظنون وأن يعود إلينا سالماً.....

(**تسكت لثوان ثم تواصل كمن تذكر شيئاً**) لكني سمعتُ بأن...

مرجانة: (**باهتمام**) عجباً ماذا سمعت؟ هل وصلتك أنباء أخرى؟

زينب: (**بشيء من الحرج والتردد**) لقد سمعتُ.. عجوزاً البارحة.. تذكر أن.. ابناً لها أخذه العسس منذ... منذ أيام، وأخذوا معه اثنين أو ثلاثة آخرين. والذي أعلمه جيداً أن زوجي ليس له علاقة بهذا الابن، ولا تربطهما معرفة، لأن زوجي إسكافي، وابنها نجار، بيد أني لا أعلم اليقين إن كان حقاً من أولئك النفر أم لا؟

مرجانة: فهمت... وكيف حالك وحال الأولاد؟

زينب: أما حالي فكما ترين وكما قلت لك، وأما الأولاد فقد تدهورت حالتهم من سيئ إلى أسوأ، بعد غياب أبيهم، وانقطاع القوت الذي كان يوفره لهم، ونفاد خبز الشعير الذي كنت أبله لهم بالماء حتى يأكلوه.

مرجانة: حسنٌ، إني ذاهبة الآن، واسأل الله أن يرد غائبك، ويطعم عيالك. وسأخبر سيدي بما قلت.

زينب: جزاك الله خيراً وأحسن إليك!

الجارية: (**منصرفة**) أستودعك الله، السلام عليكم.

زينب: وعليكم السلام، في حفظ الله ورعايته.

(**تخرج الجارية من بيت الإسكاف، وتعود إلى بيت سيدها أبي حنيفة،**

أضاعوني

أبو حنيفة جالسٌ في فنائه، مسنداً ظهره إلى جدار إحدى الغرف المطلة على الفناء، تدخل الجارية..)

الجارية: السلام عليكم يامولاي.

أبو حنيفة: (**بتلهف**) وعليكم السلام ورحمة الله، ها، هل جئت بخبر عن جاري؟

الجارية: نعم يا مولاي.

أبو حنيفة: هل هو موجود؟ هل هو مريض؟

الجارية: لا،ليس كذلك يامولاي.

أبو حنيفة: ما به إذن؟ أخبريني يا مرجانة؟

الجارية: إنه غائب منذ مدة.

أبوحنيفة: لقد صدق حدسي إذن! ليس بالدار.(**يصمت لحظة**) وأين ذهب؟ هل وجدوا له من خبر؟

الجارية: ليس هناك خبرٌ يقين عنه حتى الآن.

أبو حنيفة: عجباً كيف اختفى بهذه الصورة المفاجئة!

الجارية: لكن زوجته تقول إنها.. ...

أبو حنيفة: (**منتظراً**) نعم يا مرجانة هل سمعت شيئاً، مالك سكتّ؟ هل أسرّت إليك بشيء؟

الجارية: (**بتحفظ**) لا لم تُسرّ إلي بشيء، لكنها تقول إنها سمعتْ أن العسس أخذوا نفراً من الرجال في

بعض الليالي، ولا تدري إن كان زوجها في عدادهم أم لا.

أبو حنيفة: (كمن بدأ يفهم) آه، هكذا إذن، أحسنت صنعاً يامرجانة. وماذا عن أهله وأولاده بعد هذا الغياب؟

الجارية: (تخبره بكل ما قالته المرأة عنها وعن أولادها)

أبو حنيفة: (مندهشاً) ياويح أبي حنيفة! صبيان جاري يتضورون جوعاً وفي بيتي شيء من مطعوم! **(مخاطباً الجارية)** هيا يامرجانة اذهبي إلى المطبخ واحملي ما تجدين فيه من طعام وخذيه إلى أهل جاري حسان، وأعيني المرأة على صنعه، وأصلحي من شأن الأولاد.

الجارية: (ببعض الانشغال) الآن يا مولاي.

أبو حنيفة: (مستغرباً بلطف) ومتى إذن؟ بعد أن يموتوا جوعاً! **(بلهجة هادئة)** هيا اصنعي ما قلت لك، وسأذهب أنا لبعض شأني.

(تذهب الجارية إلى المطبخ، ويخرج أبو حنيفة، ويسدل الستار)

المنظر الرابع

(المنظر في دار الإمارة بالبصرة، يزاح الستار عن ديوان كبير متوسط الفخامة، يحتل أنحاءه عدد من قطع الأثاث والرياش المختلفة، حيث بدا في الوسط كرسي الأمير تظلله ستارة مخملية، وإلى قريب منه اصطفت مقاعد عريضة إلى اليمين واليسار وهي مخصصة لجلوس حاشيته ومريديه، وفي المركز بين هذه المقاعد وضعت بعض المناضد الصغيرة، استقرت فوقها أوعية نحاسية من تلك التي تستخدم عادة في الخدمة إلى أقصى اليمين من ذلك كله نرى مدخل الديوان المفضي إليه، وقد انتصب إلى جانبه حاجب بزي المقاتلة، معتمراً خوذته المعدنية ومعتمداً رمحه الطويل ومنتطقاً سيفه.. نشاهد الأمير جالساً على كرسيه، وهو رجلٌ ربعة من الرجال. ليس بالطويل ولا بالقصير، في حوالي الخمسين من العمر، موفور القوة، مجتمع الخلقة، توحي قسمات وجهه بأنه يتحلى بقدر من الحزم ورباطة الجأش، تغطي ذقنه لحية سوداء قصيرة، وتحيط بجبهته عمامة معصفرة، من قصب، مرتدياً بُردا من برود اليمن، وهو مشغولٌ في رُقعة يقرؤها، في حين انتظم على المقاعد أمامه جوقّة من حاشيته المألوفة لديه.. لعل من أبرزهم صاحب شرطته، الذي جلس عن يمينه.. نلاحظ علامات الاستياء والتمعر في وجه الأمير كلما أمعن في القراءة، الحاضرون ينتبهون لهذا التغير الطارئ بسبب هذه الرقعة التي بين يديه، ويستعدون لاستكناه ماجاءت به. يدفعهم الترقب إلى التفكير في ردود مناسبة تعقيباً على ماقد يكون في الرقعة من أخبار مقلقة لراحته.. بعد وقت قصير ينهي الأمير قراءته وينظر أمامه بنظرات غير مستقرة...)

الأمير: (متأففاً) تباً لهم من عصاة! ما إن ننتهي من خوارج بني مازن حتى يأتينا لصوص بني أسد! (يشير بالرقعة) ها هو ذا صاحب الخبر ينبئني عن هجوم زمرة من قطاع الطرق على السابلة في الليل وقتلهم لرجل طمعوا فيما معه. ياللهوان! أليس لهؤلاء الفساق من يؤدبهم ويكبح جماحهم ويقطع أذاهم؟

صاحب الشرطة: (محرجاً) مولاي، لقد جردتُ عليهم رجالي في أكثر من موقعة، ونصبنا الكمائن في كل مكان، ولكنهم في كل مرة نباغتهم يتفرقون في مسالك الأرض وتبتلعهم مجاهل الصحراء.. ولقد طلبناهم مرة لمدة ثلاث مراحل كاملة حتى وصلنا رمال بني سعد، وكدت أهلك أنا ورجالي في تلك المفاوز التي لا ظلَ فيها ولا ماء، ولا علم ولا دليل. يضيع فيها الخرّيت، وتتقطع من ظمئها الإبل.

الأمير: قاتلها الله زمرة الباطل، وأعوان الشيطان! سأتولاهم أنا بنفسي، وسأردهم إلى جحورهم التي خرجوا منها في مضارب الريان تباً لأولئك الأعراب أما لهم من رادع؟

أحد الحضور: (معقباً) لا تحمل هماً أيها الأمير، سيستأصل الله شأفتهم ويقطع دابرهم ويريح الناس من شرهم، ويشفي قلوب قوم آخرين.

الأمير: سأشرع إن شاء الله من الغد في تدبير خطة للقضاء عليهم وجعلهم عبرة لغيرهم.

(أقصى يمين المسرح نشاهد أبا حنيفة وهو يهم بالدخول، ويكلم الحاجب الواقف لدى الباب)

أبو حنيفة: السلام عليكم.

الحاجب: وعليكم السلام ورحمة الله.

أبو حنيفة: قل لي رحمك الله، هل الأمير موجود في ديوانه الآن؟

الحاجب: نعم.

أبو حنيفة: إذن فقل له أبو حنيفة يستأذن بالدخول.

(يذهب الحاجب فيدخل إلى ديوان الأمير، ويقترب من مجلسه في انضباط وثبات)

الحاجب: مولاي الأمير!

الأمير: (ملتفتاً نحوه) نعم، ماوراءك أيها الحاجب؟

الحاجب: بالباب أبو حنيفة الفقيه،

وهو يستأذن مولاي بالدخول.

الأمير: من؟ أبوحنيفة؟.. أبو حنيفة بالباب؟ وماذا تنتظر أيها الحاجب؟ هيا اسمح له بالدخول.

(أبو حنيفة يدخل إلى الديوان في وقار وجلال محتفظاً بهيبته ومشيته)

أبو حنيفة: السلام عليكم أيها الأمير.

الأمير: وعليكم السلام يا أبا حنيفة.

أبو حنيفة: كيف حالك أيها الأمير؟

الأمير: بخير والحمد لله، لقد شرفت دار الإمارة ومن فيها بحضورك وقدومك علينا، وإنها لساعة عظيمة أن نراك هنا في زيارتنا يا أبا حنيفة.

أبو حنيفة: جوزيت خيراً أيها الأمير، هذا من طيب معدنك وكمال شمائلك.

الأمير: تفضل بالجلوس يا أبا حنيفة.

(يجلس أبو حنيفة)

أبو حنيفة: بارك الله فيك، لن أطيل جلوسي أيها الأمير، فقد...

الأمير: (مقاطعاً بتؤدة) كيف تقول ذلك يا أبا حنيفة؟ إنها فرصة كبيرة بالنسبة لي أن تكون في مجلسي وإني لمغتبط جداً أن أكون موجوداً في مجلس يضم أبا حنيفة، فقيه عصره وعالمَ زمانه.

أبو حنيفة: (مبتسماً) غفر الله لك ورحمك، ماكلُّ هذا الإطراء؟ فإنما أنا رجلٌ من عرض الناس وسوادهم!

الأمير: (يشير بيده) لا يا أبا حنيفة، ليس الأمر كذلك، إن للعلم مكانةً ومنزلة بين الناس كما تعلم أنت.

أبو حنيفة: (محتفظاً بابتسامته) أرجو أيها الأمير أن تدعنا من هذا الآن، لقد جئتُ إليك في حاجة تخص...

الأمير: (مقاطعاً) حوائجك مقضية يا أبا حنيفة قبل أن أنظر فيها، وقبل أن تشرع أنت في عرضها.

أبو حنيفة: بارك الله فيك، إني لم أتم كلامي بعد..

الأمير: ليكن ذلك في علمك من البداية يا أبا حنيفة.

أبو حنيفة: أيها الأمير، والله ما جئت إلى بابك لحاجة لنفسي أو لخاصتي، لأن جوائجي أحتفظ بها لنفسي وأبوح بها لمن هو أعلم بحاجتي وفقري مني.

الأمير: (متأملاً الكلام برهة) أعلم ذلك جيداً يا أبا حنيفة **(يهز رأسه موافقاً)** إنما نحن خلقٌ ضعاف..

أبو حنيفة: (متمماً كلامه) ولكنها حاجة من صبية صغار وزوجة مسكينة ينتظرون عائلهم الغائب، متى يرجع إليهم.

الأمير: آه فهمت الآن.. **(يصمت)**.. وأين عائلهم يا أبا حنيفة؟

أبو حنيفة: لقد اختفى منذ أكثر من أسبوعين، وبحثت عنه زوجته كل هذه المدة ولم تجد له أثراً، وأخيراً تناهى إلى سمعها أن العسس ربما أخذوه ليلاً وأودعوه السجن.

الأمير: وكيف عرفتَ ذلك يا أبا حنيفة؟

أبو حنيفة: إنه جاري لصيق داري، واسمه حسان.

الأمير: (إلى صاحب الشرطة) هل أودعتم أحداً السجن منذ تلك المدة ياصاحب الشرطة؟

صاحب الشرطة: نعم يامولاي، لقد قبضنا على حفنة من الصُّناع وجدناهم مجتمعين في سقيفة بأطراف البلدة، وذلك بعدما أصدرتم أمراً يقضي بحظر الدَّلَج. (التجول ليلاً)

الأمير: لك ذلك يا أبا حنيفة.. **(للحاجب)** أيها الحاجب!

(يأتي الحاجب)

الحاجب: (بكل خضوع) لبيك يا مولاي..

الأمير: أطلق كل من قُبض عليه في

أضاعوني

تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة ومجيئه إلينا بنفسه.

أبو حنيفة: بارك الله فيك وأصلح شأنك، هذا ما أمّلته فيك ورجوته من قدومي عليك.

الأمير: كيف لا أنزل عند رغبتك وأنا أعلم أنك ما جئت إلا لخير الناس قبل خير نفسك؟ فو الله ماجاءني غيرك إلا ويريد أن يكسب لنفسه شيئاً قبل غيره، ينتظر مالاً أرفده به، أو جاهاً أخلعه عليه، إلا أنت يا أبا حنيفة.

الحاجب: (يدخل) سيدي الأمير، ها قد أفرجنا عن أولئك النفر السجناء.

الأمير: هل بينهم رجلٌ يدعى حسان؟

الحاجب: نعم يا مولاي. ها هو ذا حسان صاحب أبي حنيفة.

الأمير: حسنٌ أيها الحاجب، إئذن له بالدخول.

(يخرج كل من على خشبة المسرح ويبقى أبو حنيفة في مجلسه)

ooo

المنظر الخامس

(أبو حنيفة جالساً، يدخل حسان الإسكاف)

حسان: (في مشهد درامي مؤثر) من؟! أبو حنيفة!!

أبو حنيفة: (هاشاً) مرحباً يا حسان،

لكم أنا سعيد بإطلاقك.

حسان: (تكاد الدهشة تعقد لسانه) أنت أبو حنيفة؟ أكاد لا أصدق ما أرى.

أبو حنيفة: (مبتسماً) ولَم لا تصدق؟ أنا جارك أبو حنيفة، حمداً لله على سلامتك.

حسان: هل جئتَ إلى هنا لإطلاقي؟

أبو حنيفة: ماجاء بي إلا هذا رحمك الله، والآن دعنا نترافق إلى البيت.

حسان: يا للدهشة!!

أبو حنيفة: عجباً لك ياحسان، ولمَ الدهشة؟ وأنا جارك ولصيق دارك، هل في الأمر غرابة؟

حسان: هل أنت متأكدٌ أنك ماجئت إلى هنا إلا لإطلاقي؟

أبو حنيفة: (صابراً) آه ياحسان، مالزوم كل هذا الجدل! أخبرتك بالأمر سلفاً، هيا يا بني لنذهب إلى البيت، فزوجتك وأطفالك على أحر من الجمر في انتظارك.

حسان: (يجثو على ركبتيه متأثراً) يالي من مجرم! يالي من فاسق أثيم! ياللعار!

أبو حنيفة: (يلحظ تأثره، ويتوجه إليه مهتما) ما هذا يا بني!!

حسان: (متابعاً) كم أنا مجرمٌ وأثيم! أنت تعرف أني ماجيء بي إلى السجن إلا لأنني فاسق سكّيرٌ عربيد!

أبو حنيفة: (مُطمْئناً) على رسْلك يابني، اهدأ واضبط نفسك، ولا داعي لمثل هذا الكلام الآن، أنت رجل كبيرٌ وعاقل، ولابد أن يكون لديك شيءٌ من الحزم والرزانة.

حسان: (بألم) إني لا أتصور أن تأتي لتسعى في إطلاق سراحي بعدما كدرت عليك صفاء ليلك، وأفسدتُ عليك خلوتك ومناجاتك وعبادتك.

أبو حنيفة: (بضحكة خفيفة، كمن يريد أن يداري شيئاً) إيه يابني، رحمك الله، إني لم أجد منك إلا كل خير! لا تُحمّل المسألة أكثر مما تستحق. لم يكن هناك لا خلوة ولامناجاة ولاصلاة تُذكر، وطوال نومي لم أسمع من جهتك شيئاً.

حسان: (مشيراً بأصبعه) أنت آخر شخص بالبصرة أتوقع أن يأتي لإخراجي!

أبو حنيفة: (مستفهماً) عجباً، سبحان الله! وكيف ذاك؟ هل فعلتُ شيئاً بحقك؟ مما قد يغيّرك نحوي أو يلحق بك أذى؟

حسان: لا، ليس ذاك، ولكني، كما تعلم أنت، سكير، عربيد زنديق...

أبو حنيفة: (مقاطعاً) حسان!.. بالله عليك تمالك نفسك، ما هذا الذي تقول؟!!

حسان: (مواصلاً بنفس اللهجة) نعم هذا ما أقوله! أنا سكير عربيد زنديق وأنت رجلٌ شريف وعالمٌ وفقيه! كيف تأتي لإخراجي من السجن وقد علمتَ ذلك من قبل؟!

أبو حنيفة: عجباً ياحسان! ماكلُّ هذا الإطراء لشخصي، والتنقص والتشويه لشخصك؟!

حسان: هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟

أبو حنيفة: (مشيراً بيده) أرجوك ياحسان، أنت رجلٌ مؤمن، أقلع عن هذه الأفكار والوساوس! ثم ألسنا جيرانا منذ زمن طويل؟ ألسنا نتقابل كل يوم في نفس الطريق، وعند الباب، عندما نعود في المساء؟ أليس داري لصيق دارك، وبابي رصيف بابك، وعيالي أتراب عيالك؟ أنسيتَ ذلك يا حسان؟

حسان: لا، أفهم ذلك كله، لكني فقط أريد معرفة شيء واحد؟

أبو حنيفة: (متنهداً) لا إله إلا الله، وما هو ياحسان؟

حسان: كيف تتجشم المجيء والتماس إطلاق سراحي وأنت تعلم علم اليقين ما أنا عليه من الموبقات ومعاقرة المسكرات، وإقلاق راحتك كل ليلة عندما تخلو إلى ربك؟

أبو حنيفة: سبحان الله يا حسان! إذن مادمت مصراً، فلتعلم أولاً أنك جاري، والجار وخصوصاً القريب له حقوقٌ كثيرة على جاره، لعل من أيسرها ما قمتُ به، ثم ما ذكرته عن نفسك ليس نهايةً في حد ذاته!

حسان: (منتبهاً إلى الملاحظة الأخيرة) وكيف ذاك يا أبا حنيفة؟

أبو حنيفة: (مؤكداً) أقصد في ذلك، وأرجو أن تفهمني جيداً، أن رحمة الله ومغفرته أوسع مما تظن بكثير.. **(يصمت قليلاً)**.. بإمكانك التوبة والإقلاع عما كنتَ عليه، يجب أن تعلم يابني أن الله يقبل التوبة عن عباده، وباب التوبة مفتوحٌ للمرء إلى أن يختم عمله وتخرج روحه، ولا تيأس من ذلك أبداً، يمكنك بدء حياة جديدة، وطيّ صحائفك السابقة، لأن التوبة تجبُّ ما قبلها، كما ثبت ذلك. هيا يا بني، لتذهب إلى زوجتك وأطفالك، فهم في أشد الشوق إلى لقائك.

حسان: (ينهار إلى الأرض منتحباً) لشد ما أشعر بالإثم والخطيئة لما فعلته في حقك!

أبو حنيفة: (منحنياً إليه) ما هذا يابني! لاحول ولاقوة إلا بالله، إنما أنا مخلوق من عرض مخلوقات الله! وإن كان هناك شيء فيجب أن تستغفر مما فعلته في جنب الله وتطلبه الصفح والعفو عن ذلك.

حسان: (محاولاً تقبيل يده) سامحني عما فعلته إزاءك، من إزعاجك في بيتك، ثم عنائك ومجيئك إلى هنا بسببي.

أبو حنيفة: (بعطف وهدوء) أطلب

أضاعوني

السماح والعفو من الله سبحانه، فإنه وحده هو الغفور الرحيم.

حسان: (رافعاً رأسه) إذن لتسمعني يا أبا حنيفة، ها أنذا أعاهد الله أمامك ثم أعاهدك على ألا أعود إلى شرب الخمر أبداً، وأن يكون آخر عهدي بها ما أُخذتُ بسببه.

أبو حنيفة: (مبتهجاً) بارك الله فيك ياحسان! هذا ما أمّلته فيك ورجوته من مجيئي إليك، ثبتك الله على ذلك.

حسان: (ممتناً) جزاك الله خيراً وشكر لك! سأطوي صفحة سوداء من تاريخ حياتي بفضل الله ثم بفضلك.

أبو حنيفة: اقبر تلك الأيام وابدأ حياة جديدة من الآن، وفقنا الله وإياك إلى صالح الأعمال! هيا يا بني، عيالك في انتظارك منذ غيابك المفاجئ لأكثر من أسبوعين.

(يخطوان بضع خطوات إلى الخارج.. يتوقف أبو حنيفة ويلتفت إلى حسان، ويقول بلهجة محببة، متوجة بابتسامة..)

أبو حنيفة: والآن، هل أضعناك يا فتى؟

حسان: (يفهم الإشارة، وبلهجة واثقة) لا، بل حفظتَ ورعيتَ، فجزاك الله لقاء ما صنعت يا أبا حنيفة!

يخرجان

□□ المنظر السادس

(بيت حسان الإسكاف.. نشاهد باحة البيت الصغيرة الآنفة الذكر، نسمع طرقاً على الباب، تخرج زينب لفتح الباب، وإلى صدرها صغيرٌ كانت ترضعه، تصل إلى الباب وتسأل..)

زينب: نعم، نعم، من الطارق؟

(لا إجابة... تفتح الباب فإذا حسان...)

زينب: (مندهشة) وارباه! حسان! زوجي العزيز!

حسان: زينب!! **(يحتويها)** لشد ما افتقدت رؤية هذا المحيا الجميل.

زينب: (ناظرة إليه بعيون دامعة) أكاد لا أصدق أنك عدت بعد هذا الغياب.

حسان: الحمد لله على ذلك! ها قد عدتُ الآن!

زينب: لكم أقلقني وعذبني غيابك، الحمد لله على رجوعك إلينا سليماً معافى من كل مكروه.

حسان: وأنا كذلك يازينب لكم برّح بي بُعدي عنك وعن الأولاد، (يأخذ الرضيع منها فيقبله) لكم اشتقتُ إليك أنت أيها المزعج الصغير.. أين بقية الأولاد؟

زينب: في الدار. **(تناديهم)** عمرو.. سمية.. عديّ.. هيا يا أولاد هذا أبوكم قد جاء!

(يأتي الأولاد جميعهم وهم يتخافتون)

الأولاد: (بصوت مختلط يشع بالبهجة) يا إلهي! لقد عاد أبي! ها هو ذا أبي! ها هو ذا أبي!

حسان: (منحنياً لهم) آه، مرحباً يا أولادي، آه، الحمد لله! لقد قرت عيني برؤيتكم أخيراً بعد هذه المدة **(يأخذهم إلى صدره فيقبلهم)** مساكين لقد تسببت في معاناتكم **(يحيطون به. أحدهم يحاول تسلق ظهره، بينما ظلت البنت الصغيرة تتشبث بثوبه لكي يأخذها إليه)**

عمرو: (أكبرهم): أين ذهبت يا أبي كل هذا الوقت؟ لماذا لم تخبرنا أنك ذاهب؟ لقد خفنا عليك كثيراً، خاصة بعدما رأيت أمي تندبك بحسرة وتقول: واحساناه!

(حسان ينظر إلى زينب بامتنان وإكبار، بينما بادلته نظرات ملؤها الوفاء وأومأت برأسها بأسى)

عدي: سألت أمي عنك يا أبي فقالت إنك سافرت إلى جدي بالكوفة، لماذا لم تأخذنا معك إذن؟

حسان: (منتبهاً لسؤال الصبي) آه، لا تقلق يا عدي، سأخذكم كلكم المرة القادمة إن شاء الله لتروا جدكم هناك.

(بعد قليل ينصرف الأولاد)

زينب: لم تخبرني ياحسان، أين اختفيت طوال هذه المدة؟

حسان: ألم يصلك خبر؟ لقد كنت في السجن، قبض علي العسس في تلك الليلة مع زمرة اجتمعتْ على باطل.

زينب: آه، لقد صدق ما سمعتُ إذن!

حسان: وهل سمعت عن ذلك؟

زينب: مجرد كلام يجيء ويذهب عن جماعة قليلة أخذهم العسس وصلني عرضاً أمس عندما كنت أواصل السؤال والبحث عنك في السوق.

حسان: (يقترب منها ويقبل رأسها) زينب، أرجوك سامحيني في كل ما أذنبته في حقك، لقد قدّمت لي الكثير ولكني لم أقابل ذلك بالإحسان..

زينب: (تتأمله) حسان....

حسان: (بحُرقة) لقد أخطأت كثيراً، وتهجمت عليك مراراً وقابلت نصحك بالسباب والشتيمة والكلام البذيء، خاصة عندما كنت أقارف تلك الخبيثة، الخمر.

زينب: حسان..

حسان: (متوسلاً) أرجوك اغفري ما ألحقته بك من أذى نفسي وجسدي، اغفري ما يتعلق بجانبك، فقد سويت مابيني وبين

الله وتبت إليه من السكر ومعاقرة الشراب. أرجوك سامحيني يا زينب. عفا الله عما سلف. لقد عزمت أن أحيا حياة جديدة.

زينب: (بدموع الفرح) حسان! هل صحيح ما أسمع وماتقول! الحمد لك يارب، لا إله إلا الله، سبحان الله ما أوسع رحمته وأبدع قدرته، إنه على كل شيء قدير!

حسان: (بلهجته السابقة) والآن أرجوك سامحيني. لن أرتاح حتى يطيب خاطرك تجاهي، وتندمل جروح نفسك من سوابقي.

زينب: حسان.. كيف أحمل عليك شيئاً وأنت زوجي وشريك عمري ورفيق دربي؟ **(تغالب دموعها)** كيف لا أسامحك وقد قضيت معك تسع سنين شاطرتك فيها مر الحياة وحلوها، ونعيمها وبؤسها، وسعدها وشقاءها **(تخنقها العَبرة)** لن تهون العشرة ياحسان...

حسان: (يضمها إليه بحنو، ويقطع كلامه التأثر الشديد) كنت أعلم، يازينب.. كنت أعلم أنك ستدفنين كل ما سبق، أنت.. أنت تيار من الحنان لاينضب.. أنت نبعٌ صاف من الحب والمودة والسكن والتسامح، أنت رمز للرحمة والشفقة في هذا البيت الصغير. **(يرفع ذقنها الصغيرة بيده)** لأمر ما يازينب.. لأمر ما جعلك الله أمّا!

زينب: يا الله، إنه يوم من أيام حياتي عندما عدت إلّي وإلى أولادك سالماً بعد أن كاد يقتلني الخوف على مصيرك الذي لم أكن أعلم عنه شيئا.

حسان: (يمسح وجهها بيده) كفكفي دموعك ياعزيزتي **(يصمت)**..... أتدرين كيف خرجت من السجن؟

زينب: (تحاول استعادة لهجتها) ماذا، هل جاءكم عفو من الأمير؟

حسان: لا، ليس عفواً من الأمير.

زينب: ماذا إذن يا حسان؟

حسان: لقد جاء شخص بعينه لإطلاقي من هناك! أتدرين من هو؟

زينب: ياللعجب، ليس لك أحد ذو بال في البصرة! من ياتُرى؟ أيكون الأمير بنفسه؟

حسان: لا ليس الأمير وستدهشين، إنه جارنا أبو حنيفة!

زينب:(كمن تذكرت شيئاً) آه، سبحان الله، فعلاً، لقد أرسل الجارية بالأمس لتسأل عنك، وتستطلع خبر غيابك، عجيبٌ حقاً، أيمكن أن يكون هو؟ أسعى بنفسه لإطلاقك؟

حسان: نعم، يازينب، بكل هيبته ووقاره وورعه ودينه!

زينب: غريب! ولكن كيف أحس غيابك وأنت ليس لك صلةٌ به؟

حسان: (بنظرة ذات مغزى) ألا تعرفين؟ لقد افتقد أذاي وإزعاجي له كل ليلة!

زينب: أتساءل، إذا كان الأمر كما تقول، فيجب أن يرتاح لانقطاعك واختفائك!

حسان: هذا ما أراه فعلاً، لكن، لابد أن له مغزى كبيراً من حضوره لإخراجي! إنه رجلٌ عالمٌ فقيهٌ بعيد النظر، ولقد كادت الدهشة تعقل لساني عندما رأيته أمامي بشحمه ولحمه، يهشّ لي ويبشّ، وكأني صفيّه وخليله، ولست مجرد إسكاف سكير حقير! ولقد لمستُ منه سروراً عظيماً عندما أعلنت له توبتي.

زينب: جزاه الله بما هو أهله، إنه رجل صالح، وما جاء إليك إلا لينقذك من الخمر قبل أن ينقذك من السجن.

حسان: الحمد لله الذي أنقذني منها، وشكراً لله سعي أبي حنيفة في ذلك، وجعله هادياً للخطاة أمثالي!

زينب: الحمد لله أولاً وآخراً!

«سدّار»

الأدب الإسلامي

شعر:
أحمد بن روان الجزائري

أَدبُ الإسلام خَفْقةُ قَلْبٍ
رَاعشٍ يخْشَى وَيرهَبُ رَبًّا
وَوَجِيبٌ صَوْتُهُ مُسْتكينٌ
ضَارِعٌ، يَسْتغْفر اللَّه ذْنبَا
وَتسَابيحٌ تُمَجِّد ربّاً
فِي اشْتِياقٍ تَغْمُر القَلْبَ حُبًّا
أَدَبُ الإسلامِ إشْراقُ مَعنًى
طَاهرٍ واللفظ. يَخْرجُ عَذْبَا.
وَبَيانٌ يَنْشرُ الخيرَ طُرّاً
وَيَذُرُّ النُّورَ شَرقاً وَغرْبَا.
وحُسَامٌ ينْصُرُ الحقَّ دوماً
فِي مَضَاء، كانَ ذلك دَأْبَا.
أَدَبُ الإسلامِ دَعْوةُ صدْقٍ
بهُدَى الرَّحمن تَزْدَادُ قُرْبَا.
هُوَ رُوحٌ تَملأ الكونَ حُبّاً
يَنْتشيها النَّاسُ عُجْماً وَعُرْبَا.
هُوَ ضَرْبٌ فِي الأَراضي نجَاداً
وَوِهَاداً لا يُغَادرُ شِعْبَا
فوق هَام السُّحْب يَعْلُو نَقاءً
وصفاءً.. لا يضَيع دربا.

قصيدتان

شعر/ د. صالح الزاهراني*

كائن بلا هُوِيَّة

من أيِّ نهد شربتَ الصمتَ والوَجلا؟!
وأمَّهاتُك صَيَّرنَ الشجى أملا
من أين عمّمت هذا الذُّلَّ... ما عرفتْ
أرضُ الشياهين لا نسراً، ولا حَجَلا؟
في مقلتيكَ أرى «سَعْداً» برايتِه
وفيلقاً «لصلاحِ الدين» مشتعلا
أرى احتملات معنىً كنت أجهلُهُ
ولم يكن عند من أغلاكَ محتملاَ
من أنت؟. أُبْصرُ في عينيكَ أسئلةً
عويصةً، وهموماً أثقلتْ جبلا
من أنت؟ أَقرأُ في كفيكَ مَلحمةً
موءودةً، وخيولاً كفّنتْ بطلا
كأنه ما أتاك الكون مبتهلاً
يوماً، ولاحُفَّ بالنجوى ولا احتفلا
ولا ارتمَتْ تحت رجليكَ النجومُ هوىً
والشمسُ ماشاطرتكَ البَوحَ والغزلا
من أنت؟ «عنترةُ العبسيُّ» أَلْمحهُ
في وجنتيكَ يُباري الخيلَ والأسَلا
كيف انحنى فيك هذا الرأسُ يا قمراً
بزهْوِ عينيه كُنا نضربُ المَثَلا
من أنت؟ ما قلتُ شيئاً... كان يقتلني
بكل حرف بهيٍّ كلَّما سألا
ما قلت شيئاً.. نكستُ الرأس مكتئباً
وكنتُ أُطرق مما قاله خجلا

□□□

بهو الفيروز

أنتَ القصيدة، فيك رعشتها
فيك الضنى، والزّهو، والترف.
فيك الرَّحيل المُر، قافيةٌ
رفّافةٌ. من طبعها الهَيَفُ
فيك احتدام اللّحن في فمها
ل١٠ما يهزّ قوامها الدَّنَف
الموج فيضٌ من تألُّقها
والشوق من آياته الصَّلَفُ.
يُلقي إليها الصبُّ آهتَه
فتجود بالنَّجوى، فيرتشف
والمدلجون لها روا حلَهُمْ
تعدو، ويُطوى دونها الهدفُ

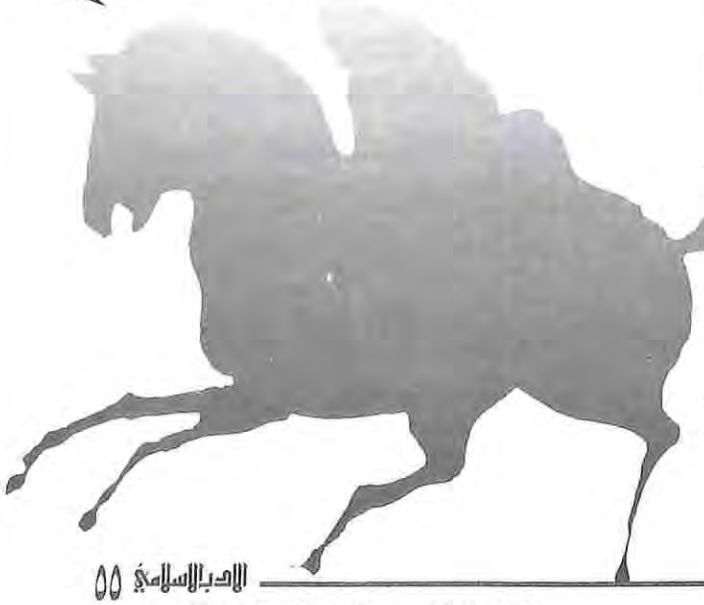

يتسابقون إلى الهوى زُمَراً
ونفائسُ المحصول تختلف
فيها من المخبوء لؤلؤةٌ
عذريَّةٌ، وكثيرها صَدَفُ
الشعر أنتَ، كلاكما لغةٌ
من رائع الإحساس تغترف
تعب الورى في سرِّ «شفرتها»
والبكرُ يحمي عرضَها الشرف
غنَّى لها الغوّاص، جاذبها
حبَل الدَّلال، فكاد يُختطف
ألقى شِباك الصيد، أرهقها
فأتت وملءُ خيوطها أسفُ
الشعر أنت، عليكما ظُلَلُ
كُشِفَ الخبيءُ، وليس تنكشف
بهوٍّ من الفيروز، نقطعهُ
حبباً، ولكن مالَهُ طَرَف
«السندبادُ» يعود راوية
يروي الهوى، ويظلّ يعترف
يصف الرؤى، ويقولها بأسى
«إن الحقيقة فوقَ ما أصفُ»
وتَظلُّ في الأعماق أسئلةٌ
فيها جوابُ الناسِ مختلف
ويظل هذا اللغز يأسِرنا
ولذا لنا في صدركُمْ كَنَفُ
وقف الأُلَى فوقَ الطلول هوىً
واليوم نحن لشوقنا نقفُ

---

* أستاذ مشارك بقسم البلاغة والنقد ـ كلية اللغة العربية ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

أحماض

أدبية

القول الممتاز في مثالب التلفاز

حدثنا أبو الفتح عثمان بن جني قال: قلت يوما لأستاذي أبي علي الفارسي: هل سمعت بما جرى للأدباء في دار ابن الجهم؟ قال: والله ما سمعت شيئا.

قلت: سبحان الله يا أبا علي، قد شغلك النحو والتصريف عن استطلاع الأحوال والاستكثار من الأموال! إنهم في دار ابن الجهم يشاهدون «التليفزيون»! قال: ويحك ماذا تقول؟!

قلت: ما سمعت، يشاهدون «التليفزيون» قلها يا أبا علي. قال: والله لا أقولها!

قلت: إنهم يسمونه التلفاز. قال: أما هذه فنعم، تلفاز على وزن تِفعال! ما التلفاز يا أبا الفتح؟ قلت: إنه آلة كالصندوق، ينقل أخبار السوق، ويحكي عن الخيل والنوق، والطبل والبوق! وهذا ما سمعته من ابن فارس. قال: فانطلق بنا إلى ابن فارس.

قال أبو الفتح: فدخلنا على ابن فارس فألفيناه غارقا في التأليف.

فقال له أبو علي: لقد رزقت يا أبا الحسين التصنيف، وأمنت من التصحيف، فقل لنا في التلفاز قولا بليغا.

نص بقلم: د. أحمد عطية السعودي *

قال ابن فارس: التلفاز يا أبا علي، من الفعل الماضي الرباعي «تلفز» يتلفز تلفزة، ويقال له: «التليفزيون»، وعند الطنطاوي علي: الرائي! وفي ضبطه روايات متواترة، وهو ومشتقاته في صندوق محكم!!

قال أبو علي: ومن اخترعه؟ قال: بعض العجم الذين سبقوا الأمم.

قال: هو آية؟ قال: نعم، آية تشهد على قدرة الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

قال: ما لونه؟ قال: هو في صندوق. وله «شاشة» بيضاء فيها صور ملونة تَضُرُّ الناظرين!

قال: ما الشاشة؟ قال: لوح زجاجي مستطيل تعرض بوساطته الصور.

قال: وكيف حصل ابن الجهم على هذا الشيء الغريب، والصندوق العجيب؟

قال: لما قدم ابن الجهم على الخليفة المتوكل أنشده قصيدته التي يمدحه فيها:

أنت كالكلب في حفاظك للود
وكالتيس في قراع الخطوب

فعرف المتوكل قدرته وحسن مقصده وخشونة لفظه، فأمر له بدار على دجلة قرب الجسر فيها من ترف المدينة ومناظر الطبيعة ما يغذي الروح والبدن، وأهداه هذا التلفاز، وجعل الأدباء يتعاهدون مجلسه، ويشاهدون ما لا عهد لهم به!

ثم استدعاه الخليفة بعد مدة فأنشأ يقول:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري!

فقال المتوكل: لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة!

قال أبو علي وقد تغشّاه العجب، وتداخله الطرب: ومن كان عنده من الأدباء؟

قال: والبة بن الحباب، وابن خالويه، والأزهري، والخوارزمي، والجوهري، والزجاج، وأبو سعيد السيرافيّ.

قال: ما أعجب ما رأيتم فيه؟ قال: مناظرة بين ثعلب والمبرد، غلب فيها المبرد وأبدع!

قال أبو علي: إذن هو خير كله. قال: لا يا أبا علي، إن فيه مشاهد منكرة، ومفاسد كثيرة، ومثالب متكررة! قال: فهل إفساده من جهة اختراعه أم من جهة وضّاعه؟

قال: بل من جهة وضّاعه الذين خلطوا فيه عملا سيئا كثيرا وآخر صالحا قليلا!

قال أبو الفتح: قلت يا أبا الحسين، إن ابن الرومي مدح التلفاز لما مرّ به في سوق بغداد، وقال متعجبا:

ما أنس لا أنس تلفازا مررت به
يلقي «البرامج» وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في «شاشة» برقت
وبين رؤيتها مجلوّة الصور
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يُرمى فيه بالحجرِ!

قال: يا بني، إن ابن الرومي رجل محزون مفتون كثير التطير، فما عجب من شيء وكان حسنا!

قال أبو علي: فما كان من أمر الأدباء الذين شاهدوا التلفاز؟

قال: أما والبة بن الحباب فكان يطيل المكث عند التلفاز فساء خلقه، وفسد طبعه، وعمّ فجوره، فاتخذ له في الخلاعة مذهبا، وعلى قمم الرذيلة منصبا!

ورأيت أبا نواس في السوق ذات مرة فقلت له: هيا أبا نواس نتفكر في إصلاح الناس.

فقال: دعني، إني أخشى أن يفوتني «المسلسل اليومي» و«الفيلم الأجنبي» ولعمري ما نصحتني!

قال أبو علي: ما «المسلسل» وما «الفيلم» يا أبا الحسين؟

قال: المسلسل على الغالب حكاية تافهة تجعل في حلقات ليلية! وغالبا ما يكون الفيلم قصة خلاعية تعرض على الملأ، وتحكي عن الغرام وتثير في المراهقين الغرام، أو رواية مرعبة تفسد الأحلام وتعلم الإجرام.

قال أبو علي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا».

قال أبو الحسين: وأما ابن خالويه فشغله التلفاز عن إتمام إعراب القرآن فأعرب ثلاثين سورة فقط. وأما ابن دريد فخص التلفاز «بمقصورته الكبيرة» في مدحه وبيان همزاته ولمزاته! وأما الأزهري فهجره ورعًا منه، واشتغل عنه بتصنيف معجمه المشهور «التهذيب»! وأما الخوارزمي وهو ابن أخت الطبري فقد نسي عشرين ألف بيت كان قد دخل بها على «الصاحب بن عباد» الذي أمر غلامه بألا يدخل عليه أحدا لا يحفظ عشرين ألف بيت! وأما «الجوهري» صاحب «الصحاح» فقد اعترته وسوسة فصعد إلى سطح الجامع في نيسابور، وزعم أنه يطير فألقى نفسه فمات!! وأما الزجاج فقد هجا التلفاز بقوله:

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه
ولا خير في وجه إذا قل ماؤه!

قال أبو الفتح: فخرجنا من عند ابن فارس حانقين آسفين لما رأينا من شغف الناس بالتلفاز وميلهم إلى الكسل والخمول وحرصهم على الغناء والطبول.

قال: فعملت بنصيحة أستاذي أبي علي الفارسي فأفردت بابا واسعا في كتابي «الخصائص» جعلت عنوانه:

«القول الممتاز في مثالب التلفاز»!

---

* كاتب وناقد أردني له مجموعة من المقالات المنشورة في الصحف والمجلات.